حكاية السلم

وقصص أخرى

ترجمة:

سلوى بهجت

تقديم:

أ. د. محمد شبل الكومى

رقم الإيداع: ٥٧٢٠/ ٩٦

تقديم

إن التقديم لمجموعة قصصية مترجمة يطرح قضية أهمية الأدب في حياتنا، و جملة الإجابات التي طرحتها المدارس النقدية المختلفة عن هذا السؤال تؤكد أهمية الترجمة. فإذا كان على الأدب أن يكون ممتعا و أن يشكل بنية و هدفا جماليا و على صلة بالحياة فإن العبء على المترجم يصير مزدوجا : عبء نقل التجربة الإبداعية بشفافية تكاد تلغي وجوده نفسه، و عبء اختيار المادة المترجمة. و قد اختارت د. سلوى بهجت شخصيات بارزة في الأدب العالمي في فترة ما بعد الحرب. إن مشوارهم الأدبي يدخل في سياق الظروف التاريخية التي عاشوها : روح قلقة تمتزج فيها الرغبة الواضحة في التجريب مع الموقف المثير، المزاج الساخر الذي يمثل الوجه الآخر للإحباط، مع التعاطف أو الشعور بالإشفاق إزاء المعاناة التي لا مخرج لها عند الجنس البشري. بالإضافة لهذا المضمون فقد

أحدثوا ثورة في القصة وذلك باستيعابهم لعملية التحول من القرن التاسع عشر إلى القصة الحديثة.
تتعدد الموضوعات التي اختارتها المترجمة ففيها الإغتراب الناتج عن تبني فلسفة خاطئة للحياة مثل " الغاية تبرر الوسيلة " كما في قصة " حكاية السلم " و المواقف الإنسانية التي جسدها زيجموند موريس في قصة " المهد الصغير "، أو موقف مثل جودو عند إميليا باليونين، أو الإلتزام بقيم الحق و الخير و الجمال والتي هي قيم عالمية مطلقة دون الإلتزام بأيدلوجية معينة كما قدمها ويليام ساروويان، أو الشك و عبثية الحياة عند بيراندللو، أو الإحباط الذي يمثل الوجه الآخر للفن الساخر.
فاختيارات المترجمة كما هو واضح تكشف أنها اختارت نصوصا على صلة قوية بالحياة و ذات علائق متنوعة : فهناك ما يسمو بالحياة أو يستهزىء بها أو يناقضها. فالنصوص المنتقاة ذات طبيعة هادفة.
و تمثل المجموعة تحديا كبيرا للمترجمة، لأن في مثل تلك القصص قد ينفصل الموضوع عن ماهية الفن و هذا ما يقع فيه المترجم العادى بأن يكون

بعيدا عن ماهية الفن و يقتصر على الموضوع و تصبح الترجمة تأريخ حالة أو توضيحا لنموذج عام أو مجموعة من الشواهد و الأعراض تحدث معا فقط. و هذا ما نطلق عليه الحكاية التي هي مجموع الحوادث و التي هي تجريد من المادة الخام. ولكن المترجم الفنان هو الذي لا تغيب عنه ماهية الفن متمثلة في البنية السردية التي تمثل التقديم الفني المنظم للحوادث و ذلك من خلال زاوية السرد أو ما يطلق عليها " بؤرة السرد " ، و هنا تظهر براعة المترجم في أن يقدم الترجمة من نفس الزاوية التي وقف فيها المؤلف من الحياة. و هذا ما يجعل الترجمة عملا فنيا إبداعيا فالأديب يمكنه أن يختار أي زاوية ولكن على المترجم أن يكتشف تلك الزاوية. فالترجمة إذن عمل إبداعي و نقدي في ذات الوقت، و أستطيع أن أقول أن د. سلوى بهجت لديها وجدان الأديب و عقلية الناقد. أتوقف هنا وأترك القارىء ليحكم بنفسه.

ا.د. محمد شبل الكومي

هريستو سميرننسكى

هريستو سميرننسكى علم من أعلام الأدب البلغارى . ولد فى ٣٠سبتمبر سنة ١٨٩٨ وتوفى فى١٨يونيو سنة ١٩٢٣كتب الشعر والقصة القصيرة. كانت أعماله كلها تدور حول ضحايا مرض السل الذى وقع هو نفسه فريسة له. بلغ إنتاجه الفنى نحو خمسمائة قصيدة وثلاثمائة قصة قصيرة . حتى أننا يمكن أن نعتبر ما قدمه سميرننسكى مرحلة خاصة فى تاريخ الأدب البلغارى. وسميرننسكى فنان موهوب و شخصية رائعة عرف بفكره الإشتراكى ، وهو رجل مبادىء اشتهر بطيبة قلبه و تعاطفه مع أولئك اللذين يعانون قسوة الحياة والمرض . وقد انعكست انسانيته هذه

على شعره و أدبه . أبغض الظلم و حاربه واتخذت حربه اسلوب السخرية سلاحا لها . تعددت الموضوعات التى كتب فيها حتى يمكن أن نقول إن أعماله كانت صدى للحياة فى بلغاريا. أما عن أسلوبه فيتميز بالمرح والذكاء فى التعبير عما يجيش بنفسه ، ذلك الأسلوب الذى استطاع به أن يتجنب نقمة معارضيه .

آمن بالتغير الاجتماعى على أسس اشتراكية و من ثم فإننا نلمح ثوريته فى شعره الصادق الذى ضرب بجذوره عميقا فى حياة الشعب البلغارى . من المنطقى إذن أن تكون الطبقة الكادحة هى المحور الذى تدور حوله أعماله . تمجد الشعب وتتغنى بفضائله وانسانيته ، و صفاء روحه ، وكفاحه من أجل حياة أفضل . لقد فتح سميرننسكى أمام الأدب البلغارى آفاقا جديدة نحو تغيير الحياة فى بلغاريا على أسس جديدة ... أسس أخلاقية واجتماعية . إن مجتمعا حافلا بالمتناقضات لا بد وأن يدور به صراع رهيب و قد صور كاتبنا هذا الصراع موضوعيا و عاطفيا ، ذلك الصراع بين

قوى التقدم و التخلف و الرجعية . ومع أن هذا الصراع قد انتهى و استقرت القوانين و الأسس التى حارب من أجلها فإن شعره و أدبه ما زالا يلقيان عناية و اهتماما و اقبالا شديدا. ذلك لأن شعره انعكاس لموقفه الإنسانى تجاه مجتمعه . وما التقدم الإنسانى إلا محصلة طبيعية للصراع الأبدى بين القديم والجديد . لقد وقف سميرننسكى إلى جانب الجديد حيث آمن بأن هذا الصراع بين الصدق والزيف سوف يستمر إلى النهاية و لا بد للفنان من أن يمسك بزمام المبادرة فى هذه الحرب ، وعاش سميرننسكى حياته القصيرة يتغنى بالإنسان الجديد .. إنسان هذا العصر، ذلك الذى يكافح من أجل نصرة العدالة والسلام والخير .

" ما أفظع العالم و ما أتعس هؤلاء الناس .."

تلك كانت صيحة الفتى فى "حكاية السلم" . صعد إلى القمة مع الشيطان حتى يصل إلى النبلاء الذين يحتلونها و تصور أنه بوصوله إلى القمة سيصير بإمكانه أن يقتص لأخوته الفقراء الذين يجرجرون أسمالهم البالية ، ولكنه كى يحقق هدفه هذا يضطر إلى تقديم تنازلات للشيطان . ضحى بسمعه فتحول

أنين العامة الى أغنيات السعادة ، و ضحى ببصره فلم يعد يرى أجسادهم التى أثخنتها الجراح فخيل اليه أن نزفهم " ورود حمراء جميلة تزين أجسادهم ". وضحى بقلبه وذاكرته فأعطاه الشيطان " قلبا ذهبيا وذاكرة بيضاء جديدة " . ونسى أحلامه و أحلامهم فصاح متهللا وقد تراخت قبضتاه وبدت ملامحه هادئة راضية " ما أجمل العالم وما أسعد هؤلاء الناس " .

تعتمد قصة " حكاية السلم " على الصور الحسية وعلى العلاقة بين الأضداد ، بين القاع والقمة ، بين الأسود والأبيض ، بين حمرة الدم المنثال على الاجساد الجريحة و حمرة الورد على خدود الأغنياء المترفين . يفصل بين الضدين سلم رخامى وردى اللون هالك من يقترب منه ، هالك من يبتعد عنه .

اختار الفتى أن يصعد درجات السلم درجة درجة يقوده الشيطان ظنا منه أنه يقترب من القمة كى يتحقق على يده خلاص شعبه المطحون و لكنه بوصوله للذروة يكون قد تخلى عن كل "صفات الطبيعة الانسانية " . فلم يعد أمر الفقراء يعنيه .

كتب هريستو سميرننسكى هذه القصة ليقـول :
هذا أمر يعنينـى .

* * * * *

حكاية السلم

قصة : هريستو سميرننسكى

" مهداة لكل من يقول هذا أمر لا يعنينى "
سمير ننسكى

سأل الشيطان "من أنت ؟ "
أجاب الشاب "ولدت بين الغوغاء وهم جميعا أخوتى. ما أفظع العالم و ما أتعس هؤلاء الناس !"
وقف الفتى ، مرفوع الرأس مضموم القبضتين عند أول السلم الرخامى الوردى اللون و شخص بناظريه بعيدا حيث جموع الفقراء رمادية كنهر غاض ماؤه . هاجت الجموع و ماجت ، و ارتفعت

دغلة من أذرع نحيلة سوداء ، مزقت الهواء صيحات القلق والغضب و تلاشى صداها كئيبا ، كمقذوف نارى أطلق من بعيد . اقتربت الجموع و بدت بعض خيالات متفردة وراء الأفق . انحنى رجل عجوز على الأرض كمن يبحث عن شبابه الضائع . أمسك صبى حافى القدمين بملابس العجوز البالية وراح يحملق فى درجات السلم بعينين زرقاوين هادئتين ، حملق ثم ابتسم .
تقدمت وجوه باهتة لأشباح فى أسمال بالية تردد لحنا جنائزيا . أطلق أحدهم صفارة مجلجلة وراح يضحك عاليا واضعا يده فى جيبه وفى عينه تطل نظرة مسعورة .

قال الشاب ، متوعدا ، وهو مرفوع الرأس مضموم القبضتين " لقد ولدت بين الغوغاء وهم جميعا أخوتى ، ما أفظع العالم وما أتعس هؤلاء الناس ! ولكنك أنت عندك .. فى القمة .. "

قال الشيطان وهو ينحنى إلى الأمام فى دهاء " أنت تكره إذن اولئك الذين يحتلون القمة ! "

رد الشاب " لابد أن أنتقم من هؤلاء النبلاء و الأمراء ، سوف أنتقم بقسوة لأجل أخوتى ،

وجوههم صفراء كالشمع و أنينهم أقسى من ريح الشتاء العاتية . انظر إلى أجسادهم العارية الدامية. أنصت الى أنينهم .. سوف أثأر لهم .. دعنى أذهب لثأرى."

قال الشيطان مبتسما " إننى حارس هؤلاء الناس الذين يحتلون القمة ولا أستطيع أن أخدعهم إلا اذا رشوتنى ."

أجاب الشاب " لا ذهب لدى ، ولا أملك ما أرشوك به .. إننى فقير معدم .. أمشى فى أسمال بالية ولكنى مع ذلك سوف أضحى بحياتى طوعاً ."

قال الشيطان ولما يزل يبتسم " هذا كثير .. إمنحنى سمعك فحسب "

قال الشاب " سمعى ! .. ولا أعود أسمع بعد ذلك ؟"

قال الشيطان مؤكداً وهو يفسح الطريق للشاب" بل سوف تسمع .. هيا تقدم "

انطلق الشاب صاعداً درجات ثلاثا حتى أمسكت به يد الشيطان كثيفة الشعر .

قال الشيطان " كفى .. انصت الآن إلى إخوتك وهم يتألمون هنالك "

أنصت الشاب ثم هتف قائلا " يا للغرابة ! .. لماذا يغنون الآن أغنيات السعادة و يضحكون من أعماق قلوبهم ؟ "

وانطلق الشاب ثانية حتى أوقفه الشيطان قائلا" ثلاث درجات أخرى وآخذ بصرك ".

بدت على الشاب أمارات اليأس فقال " ولكن كيف أرى أخوتى أو أولئك الذين سوف أقتص منهم؟ "

أجاب الشيطان " سوف تراهم لأننى سوف أمنحك عينين خيرا منهما . "

قفز الشاب ثلاث درجات أخرى ثم نظر خلفه .

قال الشيطان يستفزه " أنظر الى أخوتك والى أجسادهم الدامية."

قال الشاب " يا إلهى ! .. إنهم يرفلون فى أبهى الحلل بلا جراح تنزف وإنما ورود حمراء جميلة تزين أجسادهم ."

عند نهاية كل ثلاث درجات كان الشيطان يدق جرسا صغيرا و لكن الشاب انطلق ولا شىء يشغل باله إلا الوصول إلى هدفه .. أن يقتص من هؤلاء

النبلاء و الأمراء الغلاظ . درجة واحدة .. درجة واحدة ويصل إلى القمة حيث يثأر لاخوته . "

قال الشاب " لقد ولدت بين الغوغاء .. وأولئك التعساء .."

قال الشيطان " أيها الشاب ، بقيتة درجة واحدة.. درجة واحدة وتثأر لهم .. ولكنى سوف أدق الجرس مرتين فى هذه الدرجة .. فلتمنحنى قلبك وذاكرتك ."

قال الشاب محتجا " قلبى .. يا لقسوتك ! "

انفجر الشيطان يضحك من أعماقه ثم قال " لست بهذه القسوة كما تتصور .. سوف أعطيك قلبا ذهبيا . وذاكرة بيضاء جديدة .. إذا رفضت لن تستطيع أن تصعد هذه الدرجة ثم لن تثأر لأخوتك.. وجوههم كالشمع ، وأنينهم أقسى من ريح الشتاء العاتية ."

حملق الشاب فى عينى الشيطان الخضراوين المستهزئتين وقال " ياله من إنسان تعس ذلك الذى سأكونه ! .. لقد أخذت منى كل صفات الطبيعة الانسانية."

قال الشيطان " على العكس ، لن يكون هناك من هو أسعد منك .. أتوافق ؟ قلبك وذاكرتك فحسب ؟ "

أطرق الشاب مفكرا وقد تلبد وجهه وعلت جبهته المتعبة حبات عرق سوداء . ضم قبضتيه فى غضب وعض على أسنانه ثم قال " حسن .. خذ ما شئت "

وكعاصفة صيف غاضبة حانقة تطايرت خصلات شعره مع الريح وصعد الدرجة الأخيرة .. لقد وصل الى القمة . افتر ثغره عن ابتسامة وبدت نظراته هادئة فرحة وتراخت قبضتاه . نظر الى النبلاء وهم يمرحون ثم ألقى نظرة على الجموع المغبرة وهى تزأر وتجأر ولكنه إذ رآهم لم تتحرك فى وجهه عضلة وبدت ملامحه هادئة راضية ، سعيدة مشرقة . فقد رأى الجموع فى ملابس العطلة وبدا صوت أنينهم كترنيمة فى يوم عيد .

سأله الشيطان ساخرا "من أنت ؟ "

أجاب الشاب " ولدت أميرا .. الآلهة أخوتى .. ما أجمل العالم ! وما أسعد هؤلاء الناس ! "

* * * * *

زيجموند موريس

زيجموند موريس (١٨٧٩ - ١٩٤٢) واحد من أعظم الروائيين في تاريخ الادب المجري على الإطلاق . عرف بوصفه الدقيق لحياة الريف المجري وبلوحاته الفذة التي رسمها لفلاحيه . وتدور معظم أعماله الروائية حول الصراع الابدي الرهيب بين الإنسان والإنسان ، الذكر والانثى ، والرجال والبؤس .

كان موريس في قصصه واقعيا بالمعنى الصحيح للكلمة ، التصق بواقع الحياة المجرية بإحساس بالغ . وامتاز أسلوبه بالعنف والشاعرية المرهفة معا .

والقصة القصيرة التي نحن بصددها يرجع تاريخها الى عام ١٩١٧ حيث الحرب العالمية الأولى مازالت مستعرة الاوار ، والقوات المتحاربة مازالت بعضها يواجه بعضا في الخنادق .

وكان من الشجاعة في ذلك الوقت أن يكتب زيجموند موريس مثل هذه القصة ، فمنذ سبعين عاما اشترك هو ولفيف من شعراء وكتاب المجر في الوقوف إلى صف السلام في مناهضة الحرب والظلم الإجتماعي . وعندما اندلعت ثورات عام ١٩١٨، ١٩١٩ احتل هؤلاء الكتاب والشعراء الصفوف الأولى .

وتقع قصة "المهد الصغير" في النصف الأول من حياة زيجموند موريس الأدبية تلاها أروع إنتاجه الروائي والقصصي الذي يعد أحسن ما كتب في تاريخ الأدب الواقعي في المجر .

عرف موريس بمناهضته للحرب وتعاطفه مع الإنسان فقد كان لديه اعتقاد راسخ بأن الإنسان في حالة حرب مستمرة مع البؤس والشقاء .

وهذه القصة التي تدور أحداثها في الحرب العالمية الأولى هي خير تجسيد لمبادئ زيجموند موريس ، فالمحارب ساموكيس يوشك أن يضحي بحياته من أجل إعداد طبق حساء لرفيقه جوسكا . كاد أن " ينسى متاعبه وشعوره بالتعب والجوع ويستسلم لأعذب الأحلام . لكنه فجأة تذكر الرجل الآخر رفيقه جوسكاسامو ، ذلك الذي ينتظر هناك وراء الأسلاك ... ينتظر أوراق الموز الحلوة ليعد منها حساء ... كل إنسان لابد ملاق حتفه لكن جوسكاسامو ينتظر أوراق الموز الحلوة ."

وسط دمدمات الرصاص ودوي القنابل وأشلاء القتلى في الحرب المستعرة الأوار التقط زيجموند موريس موقفا إنسانيا غاية فى الرقة والبساطة يظهر من وراء ستار الحرب القبيح ، فالجندي ساموكيس يتقابل وجها لوجه مع أحد جنود الأعداء الذي كان نائما كطفل كبير . يتراجع ساموكيس عن فكرة قتله ويكتفي بسرقة مخلاته ويعود متفاخراً بغنيمته لرفيقه جوسكا ، ويكتشف الإثنان مهداً صغيرا بداخل

المخلاة . هنا يسقط قناع الجندية لتظهر هويتهما الحقيقية كفلاحَيْن ينتظر أولادهما عودتهما سالِمَيْن . بالمثل تتأكد هوية جندي العدو كأب ليس له من الدنيا سوى مهد صغير دقيق صنعه بيديه هدية لطفله . يستيقظ ضمير الجنديين . يقرران إعادة المهد ، يتسللان إلى معسكر الأعداء .. يعيدانه ثم يعودا والخجل يلفهما إذ شاهدا دموع الجندي البسيط . إن الشجاعة التي لازمتهما في هذا الموقف الإنساني النبيل هي الإنتصار الحقيقي الذي يحققانه في معركة الحياة . من هنا يشير إليهما موريس في نهاية القصة كأبوين وليس كمحاربَيْن وبذلك يسبغ على قصته بعدا إنسانيا أشد عمقا مما تحدثه الحروب في نفوس البشر .

تتشابه قصة " المهد الصغير" للكاتب المجري زيجموند موريس (١٨٧٩-١٩٤٢) مع قصيدة " لقاء غريب " للشاعر الإنجليزي ويلفرد أوين (١٨٩٣-١٩١٨) . انضم أوين إلى صفوف الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى ولقي حتفه في المعركة قبل نهاية الحرب . أدرك بحسه كشاعر

قيمة المشاعر الإنسانية التي تئدها الحروب . تصور القصيدة لقاء بعد الممات بين جندي بريطاني وخصمه الألماني الذي قتل على يديه فيقول له الألماني " أنا العدو الذي قتلته ، يا صديقي ." ويقول في آخر القصيدة " فلنخلد إلى النوم الآن ."

العدو إذن هو الحرب وليس الإنسان .

* * * * *

المهد الصغير

قصة : زيجموند موريس

من نفس القرية جاءا ، كانا دائمي المرح ، مرتفعي الروح المعنوية ، وقد حارب كل منهما إلى جوار الآخر فى خط القتال ، ومن ثم أطلق عليهما نفس الإسم . كانت الفرقة كلها تعرف الكثير عنهما . عن " ساموكيس " "وجوسكاسامو " فكان يطلق عليهما معا "جوسكاساموكيس " .

قال ساموكيس :

- أخي لقد بدأت أشعر بالجوع .

لم يكنا قد ذاقا طعاماً فى اليومين الأخيرين ، أو أصابا شيئا فى هذا العالم على الإطلاق ، فقد أرسلا إلى حيث حاجز الأسلاك أمامهما ، ومن ورائهما كانت ثمة فسحة من الأرض الخلاء تمكنت شرذمة من الجند أن تجتازها زحفاً تحت جنح الظلام ، لكنهم إرتأوا انه من الأفضل لهم العودة بالذخيرة وحدها دون الطعام .
قال جوسكاسامو متسائلا :

- ماذا لديك من طعام ؟

- قليل من الماء .

- وأنا لدى حفنة من الملح ..

- مدهش .. بوسعنا إعداد بعض الحساء .

- مم ؟

- من الحشائش .

- أتظنها تكون طيبة المذاق ؟

- بالطبع نعم .

- إنتظر لحظة .. فليس ذلك مستحبا ، أفضل عليها حساء الموز ، إنها أحسن بكثير .

- كلنا ليس لدينا موز .

- فلنأت بقليل منه إذن .. فى حقل كبير كهذا لابد يوجد موز .. كانت أمى تخرج فى أى وقت من المنزل ثم تعود ومعها بعضا منه .

- عظيم إذا كان الأمر كذلك ..
ثم ضحكا ومضيا يحبوان فى أرجاء الحقل الفسيح دون جدوى، ببساطة لم يستطعا العثورعلى صنف النبات الذى كانا يفتشان عنه .

- والآن يا أخى سأعبر الأسلاك فما من أحد هناك .. العشب لطيف .. كل ما هناك أنى سأجلس فوقه ثم ..

- سآتي معك .

- لا .. لن تفعل ذلك ، ما الفائدة من قتلنا معا من أجل بعض الموز ؟

- أتدرى ماذا ؟ سأذهب أنا .

- إنى أعرفك .. إنك تريد أن تستأثر وحدك بزرع الحقل كله لنفسك . أليس كذلك؟

وذهب ساموكيس زحفا خلال الأسلاك الشائكة . كان يتقدم زاحفا ببطء شديد كأنه " خلد ماء " بدين وهو يتحسس الحشائش ويشم رائحتها ويلمس كل نبتة موز صادفته لكنه عجز عن الحصول على ذلك الصنف ذى الأوراق الرقيقة الناعمة الذى كانت أمه تحضره معها عند أوبتها إلى المنزل .. ما أبعد أمه عنه الآن .. وما أبعد المسافة بينه وبين مسقط رأسه الحبيب إلى نفسه .

ومضى يزحف إلى الأمام . كان لطيفا أن ينزلق فى خفة وصمت خلال الحشائش الخضراء وهو يستكشفها من حوله ، خافضاً رأسه بين الفينة والأخرى وسط حشائش المرج المعدة للحصاد .

صحيح أن موقع العدو لم يكن يبعد كثيرا عنه ، وأن خنادقهم تبعد مسافة مائة متر فقط عن موقعه.. لكنه كانت تخفيه عنهم أكمات من الشجر الكثيف ، وكانت الحشائش عالية إلى حد أنه لو

انحنى لما كان رآه أحد . لكن ساموكيس مضى يشق طريقه .. لم يعد يعرف لماذا يسير أو إلى أين يسير . كان فقط يزحف كالقوقعة فاتحاً عينيه بالكاد. هنا لا يستطيع المرء أن يدرك أى حركة أمامه ، كل ما استطاع ملاحظته هو أن حواف الحشائش الرقيقة كانت تنكسر تحت وطأة ثقله .

وفجأة سمع صوتا غريباً ، أنصت إليه أول الأمر والرعب يتملكه لكنه ما لبث أن ضحك في صمت خشية أن يحدث أقل صوت .

كان ما سمعه غطيط نائم .

ماذا يفعل ؟

من ذا الذي ينام و يغط في نومه تحت قبة السماء الهائلة ؟

لو رفع عينيه فلن يرى سوى سماء عميقة الزرقة . السحب تسبح خلالها قادمة من الشرق .

يا إلهي .. كيف يستطيع مثل هذا الرجل أن ينام في بلد غريب ووسط أعدائه .. لكن لابد للجسم من أن ينال قسطا من الراحة . تماما كما لو كان في بيته حيث يعود المرء لينام بعد يوم عمل طويل .. يرقد علي الحشائش الناعمة و ينسى كل ما حوله

حتى الصباح ، وفي منتصف الليل يستيقظ على أصوات الخيل فينهض ليستأنف عمله نصف نائم فيلقي اليها بطعامها . كيف يمكن للمرء أن يعتاد كل شيء .

رغم أن النعاس الآن يثقل جفنيه فإنه لا يستطيع حتى مجرد الاستسلام له . و رغم أنه بدا له كما لو كانت أطياف النوم تشع من ذلك الرجل النائم في سلامة ودعة ، أطياف النوم تلك التي نسجت شباكها حوله هو أيضا وداعبت جفونه حتى أحس هو الآخر بالرغبة فى النوم وكان على وشك أن يريح نفسه على أحد الكثبان وينسى كل شىء فى هذا العالم ...

ينسى متاعبه وشعوره بالتعب والجوع ويستسلم لأعذب الأحلام . لكنه فجأة تذكر الرجل الآخر ، رفيقه جوسكاسامو ذلك الذى ينتظر هناك وراء الأسلاك .. ينتظر أوراق الموز الحلوة ليعد منها حساء .

دفعة واحدة طار النوم من عينيه . إن حياته - رغم كل شيء - لا تسوى الكثير فلقد مات الكثيرون .. الآلاف .. وعشرات الآلاف.. و أكثر

من هذا منذ بدء الخليقة . كل إنسان لابد ملاق حتفه لكن جو سكاسامو ينتظر أوراق الموز الحلوة. أصابت ساموكيس رعدة لكنه ما لبث أن استجمع قواه وراح يزحف "كالسحلية" .

وعلي غرة وجد نفسه وجها لوجه أمام أحد جنود الاعداء.
كان مستلقيا على العشب في زيه أخضر اللون و غطاء رأسه المائل على جبهته وقد التصق شعره البني المشعث بجبهته التي نضح منها العرق وقد فتح فمه . وبدا وجهه وديعا كوجه طفل بينما تدلت بندقيته من يده . أما مخلاته فكانت الى جانبه ملأى بالخبز .
كان نائما كطفل في حجر أمه ، ناعما بنفس ما يحس به الطفل من سعادة و أمان ، غير مكترث بما يدور حوله . كان ممكنا أن ينال لطمة أو قبلة في ذات الوقت الذي استيقظ فيه . ترى فيمن وضع هذا الجندي ثقته ؟ .. الأرض المقدسة كانت تدفئه حتى ليكاد المرء يرى دفئها ينبض في أنفاسه الهادئة .

ولمعت عينا ساموكيس وحدت نظراته فأخذ يرقب بشغف كيف راح هذا الجندي في سبات عميق .

تقدم ، ويده مطبقة على حربة حادة مشرعة ، وإذ أصبح على قيد أنملة واحدة من خصمه - وصدره اللاهث المكشوف ، الكثيف الشعر بجلده الأحمر اللون - توقف ، و توقف السلاح الصلب القاسي كما لو أنه قد أصابه التردد تحت تأثير تفكير جميل و حقيقي فتراجع السلاح و انتقل الى اليد الاخرى .

ووقف ساموكيس في مكانه حاسر الرأس بينما امتدت يده تتلمس طريقها إلى بندقية عدوه الطويلة ترفعها من بين الحشائش . يا له من حيوان مطيع هذا السلاح ، هذه الآلة ، ما لم تكن مرتبطة بنفس إنسانية .

نهاية هذا الجندي هنا في يد عدوه .. يد العدو تقدمت مرة ثانية و أطبقت علي مخلاة الجندي العامرة بالخبز .

لم يكن يريد شيئا غير ذلك .

وعادت عيناه تفحصان الرجل الضخم الراقد أمامه. لم يكن شاباً البتة فقد نبتت له لحية بنية

الشعر شاع فيها البياض وبدت ملتصقة بذقنه كما تجلت في قسمات وجهه آيات الاجهاد تلك التي تبدو في وجوه الآباء الذين طحنهم كفاح الحياة .

قال ساموكيس مخاطبا نفسه .. نم يا رفيقي ثم رفع البندقية و المخلاة فوق كتفه وقفل عائدا زاحفا. وسمع شخيرا فتملكه الرعب وكاد أن يموت هلعا فلو استيقظ المسكين لكان على ساموكيس أن يقتله . فتريث صامتا كحيوان يتظاهر بالموت ثم استأنف زحفه بعد دقيقة خالها جد طويلة .

انطلق في طريقه راجعا . ما أسهل أن تقتفي أثر خطوات أرنب على الجليد .. لكن خطوات الانسان أشد ثقلا فهي تفلق العشب من حولها و تحفر طريقها خلال الاراضي المعشوشبة .

وما أن تخطى حاجز الاسلاك الشائكة ، حتى وجد جوسكاسامو يقوم بنوبة الحراسة .. كان جالسا ينام ، وكان في نومه يشبه تماما جندي الاعداء. ولم يستيقظ من نومه .

العقوبة الرادعة هي جزاء من يضبط نائما فهم إما يضربونه أو يشدون وثاقه علي أحد الاعمدة أو

يطلقون على رأسه الرصاص في حالة الخطر .. فكيف ينام صاحبنا ؟ .. يا للمسكين .. لم يستطع أن ينتظر النبات الحلو .

هزه قائلا :

- اصح أيها الرجل .

وبعد جهد وفق في إيقاظه ، ها هو الطعام . حملق جوسكا في مخلاته المنتفخة بعينين وسنانتين ونظر الى صاحبه ثم هز رأسه.

لقد فهم . لكن هناك شيء في الحقيبة .. شيء غريب جعل عيونهما تتسع كان مهد طفل صغير أخذه جوسكا في يده ووضعه علي راحته و راح يمعن فيه النظر. كان مهدا صغيرا بالغ الاناقة منحوتا بمطواة .. مهدا هزازا لطفل صغير ..

وخيم الصمت عليهما فراحا يحملقان فيه . وأشتدت حرارة الشمس فأحسا لسعتها في ذلك المكان المكشوف . وانحدرت قطرات العرق على وجهيهما وتجمعت في ركن من عيونهما ، وسقطت دموع جوسكاسامو على المهد .

سأل جوسكا :

- من أين أتيت بهذا المهد يا أخي ؟

أجاب ساموكيس :

- لقد كان ينام هنالك وحيدا تماما .. يا له من مسكين .

هز جوسكاسامو رأسه وبقيا صامتين .

كان يريد أن يقول : سيكون هذا المهد هدية لطيفة لابنتي بوزي، لكنه لم يقل شيئا من هذا وظل على صمته. أما الآخر فكان يود لو يقول : فلتحمل هذا المهد معك إلى البيت هدية لابنتك بوزي ، لكنه أيضا لم يقل شيئا من هذا.

تناول كل منهما شريحة من الخبز وراحا يأكلان ببطء وهما يقطعان الخبز الذي أنعم الله عليهما به و يحيلانه كسرات صغيرة.

هتف جوسكاسامو :

- أخي ...

- ماذا تريد يا أخي ؟

- أين هو ذلك المسكين ؟

- إنه هناك

ومضيا يأكلان . قال ساموكيس :

- حسن .. حسن ، لو كنت فقط أعلم ...

وعادا الى طعامهما .

قال جوسكاسامو متمما كلامه :

- في إمكاني أنا أيضا أن أصنع شيئا كهذا لصغيرتى " بوزى " و أمعن النظر في المهد بعينى خبير يدرس شكله .

قال ساموكيس :

- يا له من شيء صغير لطيف ، وإن كان لا ينتمي لهذا العالم .

أجابه جوسكاسامو بقوله :

- كلا بالطبع .

وأردف ساموكيس :

- أعطنيه يا أخي .

- أنا ؟ .. كلا .

- حسن ، فلست أريد أن آكله .

- لســت أدري لمــاذا تريــده ، لكنــي أفكــر فــي إرجاعه.

- لكن هذه كانت فكرتي .. فأنا لدي طفلة ، و أنا أعلم معنى ما أفعل .

ولم يضف على ما قـال كلمـة، لكنـه مضـى يقطـع المـدق و قـد تملكـه احسـاس بـالخوف مـن أن يفقـد القدرة علي الكلام لجفاف حنجرته .

قال ساموكيس بفظاظة وهو يكسر قطعة خبز :

- حسن ، ضع به شيئا علي الاقل اذ لا يمكنك أن تعيـد المهـد خاليـا .. مـن يـدري متـى يحصـل ذلـك الجندي على عمل جديد .

كـان الجنـدي مسـتيقظا يجلـس علـى العشـب وقـد تدلت رأسه غير مدرك لما حدث له ، لكنه هب من رقدتـه عندمـا أحـس بوجـه آدمــي يـنزرع أمامــه. ولوح له جو سكاسامو بيده واضعـا المهـد الصغير في راحة يده .

حملق الجندي بعينين حمراوين مذهولا .

قال جوسكاسامو في ألفة و تودد :

- قم .. تعال لتأخذه .. ليس به ديناميت .. لاشك أنك تعرف ما هذا ؟

التقط الجندي المهد ونظر الأبوان كل منهما إلى الآخر ثم قفلا عائدين على عجل .. كان كل منهما يشعر بالخجل من مرأى الدموع التي بدت في عيني رجل .. في ميدان القتال ..

* * * * *

لويجى بيراندللو

بيراندللو (١٨٦٧ -١٩٣٦) أديب إيطالى كتب الرواية والقصة القصيرة والمسرحية . و بيراندللو هو الذى أعاد لإيطاليا مكانتها فى فن المسرح بعد فترة ركود طويلة . وهذا الإسهام يذكر له على وجه التحديد .

ومسرحيات بيراندللو الأولى عبارة عن صياغة درامية لبعض قصصه القصيرة . ذاعت شهرة بيراندللو بعد أن خرجت إلى النور مسرحية ست شخصيات تبحث عن مؤلف (١٩٢١)، والمسرحية تشكل ثلاثية مع مسرحيتين أخريين هما كل وفق هواه (١٩٢٢) والليلة نرتجل (١٩٢٩) يُعني بيراندللو فى كافة كتاباته بسعي الإنسان ويرى أنه غير قادر على الوصول إلى الشخصية المتكاملة كما يرى أن تعريف الحقيقة أمر محال ومن هنا فهو يكاد يقترب من دعاة مسرح العبث .

المكان في قصة " الحرب " هو إحدى عربات الدرجة الثانية بقطار الليل السريع ، والزمان هو الحرب العالمية الأولى . الشخصيات هم مجموعة من الآباء يجمعهم أن أولادهم قد أرسلوا إلى الحرب منهم من عاد جريحاً ومنهم من سقط أسيراً ومنهم من قتل في المعركة . لا يهتم بيراندللو بأسماء شخوصه ولكنه يهتم بوصفهم وبموقفهم من الحرب . فيقدم لنا المرأة " في ملابس الحداد حالكة السواد " والرجل الذي أرسل ابنه إلى الجبهة " والمسافر البدين الذي سقط " إبنه البطل شهيدا قرير العين من أجل بلاده ".

تبدأ القصة بالسيدة والرجل اللذين يعانيان بسبب ذهاب ابنهما إلى الحرب ، ولكن إذ يتوالى الحوار ويخرج باقي المسافرين عن صمتهم نكتشف أن السيدة والرجل هما أقل المسافرين معاناة ، فهنالك من جرح ابنه مرتين وما يزال يواصل القتال ، وهنالك من يتمنى أن يأخذ مكان ابنه على الجبهة لو كان ذلك بمقدوره .

ومن عجب أننا لأول وهله نتصور أن الرجل البدين الذي راح يعلم باقي المسافرين كيفية حب الوطن ويتحدث عن علاقة الآباء بالأبناء وكيف أن هذه العلاقة تحكمها ملكية الأبناء للآباء وليس العكس ، ويشرح لهم طبيعة الشباب وروح المغامرة التي تتملكهم ورغبتهم الجارفة في نيل شرف الدفاع عن الوطن. ينظر إليه الجميع في دهشة من رباطة جأشه وتماسكه .

وفجأة ترفع السيدة رأسها بعد أن كانت تخفي عينيها بياقة معطفها وقد أدركت أنها لم تستطع أن ترتفع إلى مستوى هؤلاء الآباء والأمهات الذين يقبلون راضين ، دونما بكاء ، لا أن يتركهم أولادهم فحسب بل يموتوا فداء وطنهم أيضا.

أفاقت السيدة من حلمها وسألت الرجل والد الشهيد

- هل مات ولدك بالفعل .

يعكس هذا السؤال اهتمام بيراندللو بسعى الإنسان ، باللحظات النفسية ذات المغزى البعيد و نحن نخرج من هذه القصة بأن الحقيقة ليست مطلقة .

هكذا كان اعتقاد بيراندللو وهذا ما يقوله فنه .

* * * * *



الحرب

قصة لويجي بيراندللو

كان على أولئك المسافرين من روما بقطار الليل السريع أن يتوقفوا حتى الفجر في محطة "فابيانو" الصغيرة ليواصلوا رحلتهم بالقطار المحلي العتيق، الذي يصل الخط الرئيسي بـ "سولمونا" . وعند الفجر و في إحدى عربات الدرجة الثانية التي امتلأت بالدخان حيث قضي خمسة اشخاص ليلتهم كان ثمة امرأة ضخمة الجثة في ملابس الحداد حالكة السواد بدت معها كصرة لا شكل لها، و تبعها زوجها

و هو يلهث و يئن.. كان ضئيل الجسم ضعيف البنية، وجهه في بياض الموتى و عيناه صغيرتان تلمعان بنظرة فيها حياء و قلق.

وما ان استطاع اخيرا ان يأخذ مكانه حتى شكر فى ادب اولئك المسافرين الذين افسحوا مكانا لزوجته، ثم استدار اليها مسوياً ياقة معطفها سائلاً إياها فى ادب:

-أأنت الآن على ما يرام يا عزيزتى؟

- و بدلا من أن تجيبه زوجته رفعت ياقة معطفها إلى عينيها كى تخفى وجهها.

غمغم الزوج و على شفتيه ابتسامة حزينة:

- يا له من عالم كريه..

و أحس أن عليه أن يفسر لرفقاء الرحلة كيف أن المرأة المسكينة تستحق الشفقة لأن الحرب قد ابعدتها عن ابنها الوحيد فى العشرين من عمره و الذي كرس الاثنان حياتهما من أجله حتى أنهما تركا منزلهما فى "سولونا" ليلحقا به فى روما حيث كان عليه أن يذهب للدراسة، ثم كيف سمحا له

بأن يتطوع للحرب يقينا منهما بأنه لن يرسل إلى الجبهة قبل ستة اشهر، و لكنهما اليوم - وعلى حين غرة - وصلتهما برقية منه مفادها أن عليه أن يرحل خلال ايام ثلاثة وفى نهايتها يسألهما أن يحضرا لتوديعه.

كانت المرأة، فى معطفها الضخم، تتلوى و تئن بين الحين و الحين كحيوان مفترس و قد ايقنت أن كل هذه التفسيرات لن تثير في هؤلاء الناس، و كلهم في مثل حالتها ،أى إحساس بالعطف نحوها. و قال أحدهم، و كان يصيخ السمع باهتمام خاص:

- يجب أن تشكر الله لأن ابنك ذاهب اليوم فقط إلى الجبهة، فقد أرسل اليها ولدي منذ أول يوم في الحرب و عاد منها جريحاً مرتين، و في المرتين أعيد الى الجبهة .

وقال مسافر آخر :

- وماذا عن حالي أنا ؟

إن لي ولدين وثلاثة من أبناء أخي في الجبهة .

قال الزوج :

– جائز ،ولكن في حالتنا نحن ،إنه ولدنا الوحيد.

– وما الفرق ؟

– أنت قد تفسد ابنك الوحيد باهتمامك الزائد به.ولكنك لاتستطيع أن تحبه أكثر مما تحب سواه من أبنائك الآخرين إذا كان لديك غيره،فعاطفة الأبوة ليست خبزاً يمكنك تقطيعه أجزاء صغيرة توزعها على أطفالك في أنصبة متساوية . فالأب يعطي حبه كاملاً لكل ولد من أبنائه على حدة دونما تفرقة سواء كان لديه ولد واحد أوعشرة . واذا كنت أعاني الآن من أجل ولدي الإثنين فهذا لايعني أنني أحمل لأي منهما نصف همه بل الضعف .

زفر الزوج وقد تبلبل فكره :

– صحيح..صحيح ، ولكن افرض – ونحن جميعاً نرجو ألا تكون هذه حالك–أن لوالد ولدين بالجبهة ففقد أحدهما..هنا يبقى له الآخر ليتعزى به بينما ..

أجاب الرجل محتداً :

- أجل ، يبقى له الآخر ليتعزى به، لكنه في نفس الوقت يجب أن يعيش من أجله ، أما الأب ذو الابن الواحد فهو اذا مات ابنه يكون في مقدوره أن يموت هو أيضاً وهذا يضع حداً لأحزانه.أي الوضعين أكثر سوءاً ؟ ألا ترى أن حالي أسوأ من حالك بكثير؟

وقاطعه مسافر بدين أحمر الوجه له عينان رماديتان شابت بياضهما حمرة الدم، قاطعه قائلاً:

- هراء ..

كان يلهث في حين عكست عيناه آيات من عنف صاحبها الناجم عن حيويته المفرطة والتي لايكاد جسده المنهك يقوى على احتوائها.

ثم قال ثانية:

- هراء ..

رددها وهو يغطي فمه بيده مخفياً مكانه اثنتين من أسنانه فقدتا ، ثم قال :

- هل نهب أطفالنا الحياة من أجل مصالحنا الخاصة؟

حملق باقي المسافرين فيه وان خيم عليهم

الحـزن ، وقـال الذي أرسل إبنـه الى الجبـهـة منذ بداية الحرب متنهداً:

– لك الحق، فـأولادنا ليسـوا ملكاً لنا ،إنـهم ملك للوطن ..

وقال المسافر البدين متأففاً:

– وهل نفكر نحن في الوطن عندما نهب الحيـاة لأطفالنا ؟ أولادنا يولدون لأنهم لابد أن يولدوا وهم عندمـا يأتون الى الحـيـاة يأخذون معهم حياتنا .. هذه هى الحقيقة .. اننا ملك لهم ولكنهم أبداً ليسـوا ملكاً لنا.. وعندمـا يبلغون العـشـرين من عـمـرهم يصبحون مثلنا تماماً عندما كنا في مثل سنهم .. نحن أيضاً لنا أباؤنا وأمهاتنا.. لكن هذا ليس كل شيء، هنالك كذلك الفتيات والسـجـائر والأهداف ، والروابط .. وفـوق ذلك كله الوطن الذي يلبي نداءه كل منا عندما يبلغ العشرين حتى لو قال أباؤنا وأمـــهــاتنا « لا » .. والآن ونحن في هذه السن، لايزال حبنا للوطن عظيماً بالطبع، لكن حــبنا لأولادنا أعظم منه ، فــمـن منا لايجد السعادة ، كل السعادة ، في أن يحل

محل ابنه في الجبهة لو كان ذلك في وسعه؟

خيم الصمت على الجميع وأومأ كل منهم برأسه دلالة على تأييده للفكرة .

وأردف الرجل البدين :

– لماذا اذاً لانقدر مشاعر أبنائنا عندما يبلغون العشرين؟ أليس من الطبيعي أن يكون هذا هو الوقت المناسب لأن يتجهوا بجماع عواطفهم نحو الوطن؟ أقصد المخلصين منهم بالطبع . ألن يكون حبهم للوطن أقوى من حبهم لنا ؟ أليس من الطبيعي أن تسير الأمر على هذا النحو ماداموا ينظرون الينا نظرتهم الى كهول لايستطيعون الحركة وعليهم أن يلزموا بيوتهم ؟ ومادام الوطن باقياً وهو ضرورة طبيعية كالخبز الذي لابد لكل منا أن يأكله كي لايموت جوعاً ، لابد اذاً أن يكون هناك من يدافع عن هذا الوطن ، ولهذا يذهب أبناؤنا الى الجبهة عندما يبلغون العشرين ، وهم لايريدون دموعنا لأنهم يموتون وهم يستشعرون سعادة غامرة في الموت – هذا

عن المخلصين منهم – ومادام الشاب يقضي نحبه وهو سعيد بعيداً عن مرارة الحياة وما فيها من ملل وحقارة وأوهام.. فماذا نرجوا له أكثر من هذا ؟ علينا جميعاً أن نكف عن البكاء اذن ، بل يجب أن نضحك كما فعلت أنا .. أو على الأقل نشكر الله .. فابني ، قبل أن يودع الحياة أرسل يقول لي إنه يحس بالرضا وهو ينهي حياته أفضل نهاية كان يرجوها، ولهذا تراني الآن في غير ملابس الحداد .

ولمس معطفه الملون الخفيف مريهم اياه ، وقد غطت أسنانه شفتان زرقاوان مرتعشتان ، وبللت الدموع عينيه الجامدتين، ثم مالبث أن انفجر في ضحكة – مجلجلة – هي أقرب ماتكون الى البكاء منها الى الضحك .

قال الجميع مؤمنين على كلامه ..

– الحق ماقلت .. هوذاك بالفعل ..

في حين راحت المرأة التي تكورت في أحد الأركان تنصت اليه ، وقد تغطت بمعطفها . عبثاً كانت تحاول خلال الأشهر الثلاثة

الأخيرة أن تجد في كلمات زوجها وأصدقائها ما يخفف عنها بعض حزنها العميق ، ما يجعلها ترسل ولدها طواعية لا الى الموت بل ماهو أخطر من الموت . ولكنها ، مع كل ماقيل من كلمات ، لم تجد ماكانت تنشده .. كان حزنها عميقاً الى حد أنها كانت على يقين أن ليس هناك من يشاركها مشاعرها .

لكن كلمات هذا المسافر البدين تدهشها بل وتصيبها بالذهول . لقد أدركت لتوها أن الآخرين لم يخطئوا فهمها أو يعجزوا عنه ، وإنما هى التي لم تستطع أن ترتفع الى مستوى هؤلاء الآباء والأمهات الذين يقبلون راضين ، دونما بكاء ، لا أن يتركهم أولادهم فحسب ، بل يموتوا فداء وطنهم أيضاً.

رفعت رأسها ومالت نحوهم من موقعها محاولة أن تنصت باهتمام شديد للتفاصيل التي كان يسردها المسافر البدين لرفاقه عن كيفية سقوط ابنه البطل شهيداً قرير العين من أجل بلاده. وبدا لها أنها قد وقعت على عالم لم تكن تحلم به قط، عالم لاتدري عنه شيئاً . ما أشد سعادتها وهى تسمعهم

يثنون على شجاعته وهو يتحدث عن استشهاد ولده .. هكذا وكأن ليس في الأمر أي غرابة .

وفجأة ، وكمن أفاقت من أحد الأحلام ، استدارت الى الرجل المسن تسأله:

- هل مات ولدك بالفعل ؟

حملق الجميع فيها واستدار الرجل نحوها بعينين منتفختين من البكاء مغرورقتين بالدموع .. حاول أن يكون جوابه على سؤالها سريعاً لكن الكلمات لم تسفعه .. نظر اليها وعاود النظر وكمن أدرك لتوه فقط - وبسبب سؤالها الأحمق هذا - أن ولده قد مات بالفعل .. قد ذهب الى حيث لارجعة .. أربد وجهه على نحو مؤلم .. سحب منديلاً من جيبه وسط ذهول الجميع.. تهاوى اعياءً ثم انخرط في بكاء عنيف.

ويليام ساroyan

(١٩٠٨ -١٩٨١)

ويليام سارويان أديب أمريكى من أصل أرمنى . بدأ حياته الأدبية كاتبا قصصيا . كتب القصة القصيرة والرواية . وصفت أعماله الأولى بالتجريب . ثم كتب سارويان المسرحية . وتعد مسرحية

The Time of Your Life (١٩٣٩)

من أهم أعماله المسرحية ، وهى مسرحية بلا حبكة . وذلك أمر مقصود من قبل سارويان حيث تعبر المسرحية عن حياة تخلو من الهدف . وقد لاقت هذه المسرحية نجاحا كبيرا عندما أخرجت للمسرح .

تغلب على كتابات ساروبان نزعة عاطفية و في بعض الأحيان يشوبها الغضب . يؤكد ساروبان في فنه على قيم الخير والدفء والحب ويقف بشدة مناهضا لما يطلق عليه هو النجاح الأمريكى العقيم . والفن فى رأيه يجب أن يسير إلى جانب السياسة ، والسياسة هنا تعنى شتى سبل الحياة . فالفن لايمكن أن يعيش بمعزل عن الواقع . إن الدين والسياسة وغيرهما من سائر أمور الحياة تتفاعل مع بعضها البعض من أجل رفعة الإنسان ومجده . ومن ثم فإن مسئولية الكاتب أن يكشف أدران الإنسانية وعذاباتها .

الخيال إذن يجب أن يتحد مع الواقع كى يتمكن الفن من المشاركة الفعالة فى صياغة الحياة . والعلاقة بين الفن والحياة علاقة أخذ وعطاء ، كلاهما يؤثر ويتأثر .

وموقف ساروبان من الفن يعكس النموذج الآرنولدى حيث الفن "نقد للحياة" وعليه أن يساعد الدين فى إيجاد معنى للحياة . ويحاول ساروبان من

خلال ممارساته الأدبية أن يقول إنه من الأفضل للإنسان أن يكون طيبا لا شريرا فمن الطبيعى أن يكون كذلك . والتزام سارويان هو دائما نحو الأنقياء فى هذا العالم ونحو الجماهير وليس تجاه أيديولوجية معينة أو طبقة بعينها . إنه التزام نحو أولئك الذين يؤمنون بقيم الحق والخير والجمال .

فى قصة " الضحك " نرى بن يضحك ساخرا من المدرسة البديلة الآنسة ويسيج فتعاقبه بأن يضحك لمدة ساعة بدون سبب بعد انتهاء الدراسة . تسببت هذه الفكرة المجنونة فى تغير نظرة بن ، الصبى المشاغب ، إلى الحياة . لم تعد الآنسة ويسيج هى الجلاد وهو الضحية بل اكتشف الصبى - رغم حداثة سنه - توترها وضعفها أمامه . تعمق الفراغ حولهما فى حجرة الدراسة فتوقفا عن كونها السجان وكونه السجين وتلاشى الصراع بينهما فلم يبق إلا "حزنه وحزنها جنبا إلى جنب."

" لماذا يتصارعان ؟ " رغم ما بينهما من تعاطف خفى . كان ذلك تساؤل الفتى البرىء .

وكأن سارويان بهـذا الموقف المدرسـى البسـيط بيـن التلميذ ومدرسته يرمز إلى لعبـة الصـراع علـى كـل المستويات سواء كان ذلك الصـراع فـى شـكل سـوء تفاهم بسيط أو نقاشا حادا أو حربا عالمية ، والسـبب دوما هو العزوف عن الإتصال بالآخرين .

يضع سارويان فلسفته على شفة بن فيقول " يـا له من عالم غبى ... كل فرد مختبىء داخـل نفسـه ، يريد شيئا و دائما ما يحصل على سـواه ... يريـد أن يعطـى شـيئا ودائمـا مـا يعطـى غـيره ! " بـذا يؤكـد سارويان سخرية الواقع الإنسانى وجهل الإنسان بمـا له وما عليه ، بل إن الكثير من ألوان الصراع تنشب بسبب مواقف هـى فـى حقيقـة الأمـر تمثـل المفارقـة الدرامية ، فبطلـى القصـة - علـى سـبيل المثـال - " يريـدان نفـس طـهارة الحيـاة ووداعتهــا ... كلاهمـا يرغبان فى مشاركة أحدهما الآخر فـى حقيقتـه ومـع ذلك فكل منهما ... بكيفية ما ... غريب عن الآخـر ، بعيد ... ووحيد ."

وعنوان القصـة هـو النمـوذج الأمثـل للمفارقـة الدرامية ، فالقصة ليسـت عـن الضحـك ... بـل عـن الحزن .

فـى قصـة " ثعبـان " يقـدم لنـا سـارويان شـابا صغيرا وثعبانا صغيرا توغلا فى الحديقـة فغابـا عـن الأنظار وصارا وحيدين معا . الشاب الصغير ينـوى القضـاء علـى الثعبـان الصغير لأنـه أمـر ضـرورى للإنسان ، فالثعبان هو " رمز الشر ". ضربه بعصاة فـى يده ... تحدث إليـه بالإنجليزيـة ... صفـر لـه نغمات شوبرت وبرامز، بل غنى له معزوفة إيطاليـة وعندما التقط قطعة صخرية ليحطم بهـا رأسـه شـعر بالأسـف فجـأة نحـو الثعبـان ، بـل أراد أن يلمسـه . تحولت الكراهية إلى حب ثم عفو و وخز ضمـير ثـم إحساس بالفخر والزهو .

يعود الشاب إلى زوجته فى المساء ليحكى لهـا قصـة انتصـاره علـى غريزتـه كإنسـان ونجاحـه فـى إعادة اكتشاف ذاته .

يتشابه الحدث الرئيسى فى قصة " ثعبان " – عزلة الشاب مع الثعبان فى الحديقة – مع الموقف الأساسى فى قصة " الضحك " التلميذ والمدرسة فى الفصل.

ففى هذين الموقفين البسيطين تحدث مواجهة بين طرفين يبدو أحدهما أقوى من الآخر فيمارس سلطته عليه ولكنا نكتشف فى النهاية أن الطرفين إن لم يكونا متكافئين فإن الطرف الذى يبدو ضعيفا هو فى حقيقة الأمر الأقوى .

وهكذا يثبت سارويان أننا دوما سوف نلجأ إلى الفن لكى يفسر لنا الحياة.

* * * * *

الضحك

قصة ويليام سارويان

"أتريديننى أن أضحك؟ "

كان يحس بالوحدة والملل فى قاعة الدراسة . الصبية كلهم فى طريقهم الآن الى بيوتهم. دان سيد و جيمس ميسبيو و ديك كوركوران ، كلهم سائرون على طول الطريق جنوبى الباسفيك وهم يضحكون و يلعبون...إن هذه الفكرة المجنونة التى خطرت فجأة للآنسة ويسيج تصيبه بالاعياء .

"نعم "

نطقتها بشفتين قاسيتين، و رعدة ، و نظرة عين و كآبة تثير الشجن "و لكنى لا أريد أن اضحك ".

كـان الامـر غريبـا .. الدنيـا بأســرها.. تغـير الأشـياء.. الأسـلوب الـذى يتـم بـه كـل شــيء كــان غريبا.

" اضحك "

كلمـا ارتفعـت حـدة التوتـر ، مـع عنفهـا و اهتزازات جسدها العصبية و ذراعيها، مع ما سببته له من احساس بـالبرد و الإعيـاء الـذى يسـرى فـى دمه ، كلما ازداد الأمر سوءا.

" لكن لماذا ؟ "

لمـاذا ؟ كـل شـيء معطـل ، كـل شـيء قبيـــح وفـج.. الارادة مشـلولة كمـن وقـع فــى فـخ.. بــلا حس.. بلا معنى .

"عقابا لك .. لقد ضحكت فى قاعة الدراسة . عليـك اذن أن تضحـك سـاعة كاملـة بمفـردك عقابـا لــك . أسرع ، فقد ضيعت بالفعل أربع دقائق."

كان الأمر مقززا ..ليس بأمر ممتـع البتـة أن يحجز بعد انتهـاء اليـوم الدراسـى و يطلـب منـه أن

يضحك .هذه ليست بفكرة صائبة ..على أى شيء سوف يضحك ؟

ان الانسان لا يمكنه أن يضحك لمجرد الضحك .. اذ لابد أن يكون ثمة شيء من ذلك النوع المسلي الذى يتباهى به المرء.. شيء هزلي. لكن الأمر كان غاية فى الغرابة بسبب مسلكها والطريقة التى كانت تنظر بها اليه متخابثة .. إنه لأمر مخيف .. ما الذى تريده منه ؟

رائحة المدرسة .. البترول يغطى أرضيتها .. غبار الطباشير .. رائحة الفكرة ..انصرف الأولاد .. الوحدة .. الحزن ..

"آسف لأنى ضحكت "

ها هى الزهرة تميل خجلي .. يشعر بالأسف .. لم يكن يخدعها قط .. كان آسفا، لا من أجله وإنما من أجلها هى.

كانت شابة صغيرة السن.. معلمة بديلة. على وجهها ذلك الحزن العميق الذى يعجز المرء عن إدراك سببه.. كان حزنها يلازمها كل صباح .. و

قد ضحك لهذا.. كان أمرا مضحكا.. شيء ما قالته .. نطقته بطريقة ما .. تحركت بطريقة ما.. حملقت فى كل الموجودين بطريقة ما .. لم يحس بأى رغبة فى الضحك، لكنه فجأة ضحك .. نظرت اليه .. تطلع الى وجهها.. لبرهة نشأت بينهما صلة مبهمة .. تلاها غضب .. فكراهية تنطق بها عيناها.

" ستبقى بعد انصراف المدرسة . "

لم تكن به رغبة فى الضحك، لكن هذا حدث ببساطة ، وأسف عليه .. عليها أن تدرك أنه خجلان من فعلته هذه.. لقد أخبرها بذلك .

"إنك تضيع الوقت .. هيا اضحك . "

أدارت ظهرها و راحت تمحو بعض كلمات من فوق السبورة: افريقيا، القاهرة، الاهرامات ، أبو الهول، النيل ، ١٨٦٥ ، ١٩١٤ . لكن حدة التوتر ظلت كما هى حتى بعد أن أدارت ظهرها.. لم يبرح حجرة الدراسة .. أكد الفراغ وجوده و زاد فيه فأصبح أشد إحكاما .. تفكيره و تفكيرها ..

حزنه وحزنها جنبا الى جنب .. لماذا يتصارعان ؟ كان يود مصادقتها .. منذ أن دخلت قاعة الدراسة ذات صباح وهو يسعى لكسب صداقتها ..

أحس فى التو بغرابتها .. بغموضها .. لماذا ضحك اذن ؟ لماذا حدث كل شيء عفوا ؟ ..

أكان عليه أن يكون هو الشخص الذى يسعى اليها وقد كان بالفعل يريد صداقتها منذ البداية .

" ليست بى رغبة فى الضحك ."

قالها متحديا وقد خنقت صوته العبرات .. عبرات الخجل.. بأى حق يضطر الى أن يئد داخله احساسا بريئا؟ انه لم يقصد أن يكون فظا . لماذا تعجز عن فهمه ؟ انتابه إحساس بالكره تجاهها ببلادتها و غبائها وعنادها وإصرارها على رأيها.

قال في نفسه "لن أضحك ، بوسعها أن تستدعي السيد كازويل حتى أجلد .. لن أضحك ثانية .. لقد كانت غلطة .. كنت أقصد أن أبكي .. أي شيء آخر .. لم أكن أقصد الضحك على أية

حال . أستطيع أن أتحمل لسع السياط .. يا إلهي كم هو أمر مؤلم لكنه ليس أشد إيلاما مما أنا فيه الآن ، إني أدرك وقع السياط على جسدي و أعرف الفرق."

حسن ، فليضربوه بالسياط ، ما الذي يهم؟ إن للسياط لسعة يحس بعدها بآلام حادة لعدة أيام .. يفكر فيما حدث .. فليمضوا قدما ليجعلوه ينحني كي يضرب فلن يضحك.

رآها تجلس الى مكتبها محملقة فيه ، بدا عليها الإجهاد و الإضطراب لكثرة ما رفعت عقيرتها بالصياح . أحس بالرثاء يبلغ فمه من جديد ، رثاء يبعث على السأم من أجلها . لماذا تسبب في كل هذه المتاعب لمعلمة بديلة مسكينة كان بالفعل يحبها . لم تكن عجوزا شمطاء .. كانت فتاة شابة ظريفة أحست بالخوف منذ البداية.

" أرجوك اضحك "

يا للمذلة، إنها لا تأمره ، بل ترجوه الآن .. تأمره أن يضحك في حين لا يريد هو أن يضحك ..

ما الذي يجب على المرء أن يفعله بكل الصدق ، وما الذي يجب أن يفعله بإرادته المطلقة و ليس صدفة كالأفعال الخاطئة؟ ماذا كانت تقصد؟

أي متعة تتحقق لها لو سمعته يضحك ؟ يا له من عالم غبي .. الناس بمشاعرهم الغريبة .. الكتمان .. كل فرد مختبىء داخل نفسه، يريد شيئا و دائما ما يحصل على سواه .. يريد أن يعطي شيئا و دائما ما يعطي غيره. حسن، سيجيب رغبتها .. الآن يمكنه أن يضحك .. لا من أجل نفسه و لكن من أجلها هي .. حتى لو أسقمه الضحك .. سيضحك.

كان يريد معرفة الحقيقة.. كيف تكون؟ لم تكن ترغمه على الضحك، بل كانت تسأله .. ترجوه أن يضحك. إنه لا يعرف كيف تم هذا لكنه يريد أن يعرف. وارتأى أنه ربما يستطيع أن يفكر في قصة طريفة و بدأ يحاول أن يتذكر كل القصص الطريفة التي سمعها ولكن من عجب أنه لم يستطع تذكر واحدة منها أو ما عداها من أمور تبعث على

الضحك كالطريقة التي يمشي بها آني جران ولكن -من أسف- أنها لا تضحكه الآن .. يتذكر هنري مايو و هو يهزأ بهيوات لقراءته المتلعثمة ولكن حتى هذه أيضا لم تعد مضحكة. كان قبلا يضحك لها حتى يحمر لون وجهه ويعجز عن التقاط أنفاسه بيد أنها أصبحت الآن عقيمة وغير ذات موضوع ..عند مياه البحر العظيم.. عند مياه البحر العظيم .. أتت .. ولكنها مع الأسف لا تبعث على الضحك. لم يستطع أن يضحك لها .. يا إلهي.

حسن ، المطلوب منه مجرد الضحك ، أي ضحكة عجوز. فلتكن ممثلا ..ها..ها..ها ، يا إلهي ! إنها مسأله عسيرة. تلك التي كانت أسهل شيء لديه في الوجود .. لكنه لا يستطيع أن يضحك ولو مجرد ضحكة قصيرة فاترة.

ولكنه بشكل ما هم بالضحك وهو يشعر بالخزى و الضيق، ولما كان يخشى النظر في عينيها فقد اتجه ببصره نحو ساعة الحائط محاولا ان يواصل الضحك. يا له من أمر مفزع أن تطلب

من صبي أن يضحك ساعة على لا شيء، أن ترجوه أن يضحك دون أن تقدم له سببا لذلك ، لكنه سيفعل ما طلب منه .. ربما لاقل من ساعة لكنه سيحاول على أيه حال أن يفعل شيئا ما .

أظرف ما في الأمر كان صوته وزيف ضحكته . ولكن ، بعد برهة ، أصبح الأمر طريفا بالفعل.. مسألة هزلية.. أسعدته لأنها جعلته يضحك حقيقة.. ها هو الآن يضحك ضحكته الطبيعيه بملء رئتيه .. يضحك من قلبه من زيف ضحكته . يفارقه خجله لان هذه الضحكة لم تكن زائفة.. انها الحقيقة. ها هي قاعة الدراسه ملأى بضحكته.. كل شي يبدو على ما يرام.. كل شي رائع .. انقضت دقيقتان.

راح يتذكر كل ما هو مضحك بالفعل أينما كان.. في البلدة بأسرها.. الناس وهم يسيرون في الشوارع محاولين التظاهر بأنهم على جانب من الأهمية ، لكنه يعرف حقيقتهم فلن يستطيعوا خداعه اذن .. انه يعرف قدرهم و الطريقة التي يتحدثون بها كأنهم كبار رجال الأعمال .. لهجتهم جوفاء

زائفة .. كل هذا دفعه الى أن يضحك. كذلك تذكر واعظ الكنيسة وطريقته في الصلاة " ربنا ما دامت هذه هي مشيئتك ."

كما تذكر أن ليس هناك من يؤمن بالصلاة و تذكر أيضا الأشخاص ذوي الحيثية بعرباتهم الفارهة، الكاديلاك و الباكار، وهم يذرعون البلدة طولا وعرضا كما لو كانوا في طريقهم إلى مكان ما ، كذلك تذكر فرق الموسيقى الشعبية .. كل هذا الحشد الباطل جعله يضحك بالفعل، وتذكر الفتية الكبار وهم يطاردون الفتيات.. كل ذلك بسبب حرارة الجو .. العربات تجوب شوارع المدينة وليس بها أكثر من راكبين، يا للعجب، هذه العربات الضخمة لا تحمل سوى سيدة عجوز و رجل ذي شارب. ضحك حتى احمر وجهه ولم يعد يمكنه التقاط انفاسه.

و فجأة زال عنه خجله و طفق يضحك وهو ينظر إلى الآنسه ويسيج . و فجأة توقف مبهوتا إذ رأى الدموع في عينيها.. يا إلهي.. لم يضحك

بسببها.. بل كان يضحك بسبب كل أولئك الحمقى و بسبب الحماقات التي يقترفونها يوما بعد يوم. إنه أمر مقزز ، فهو دائما يريد أن يفعل ما هو صواب و لكنه دائما يفعل العكس .. كان يريد معرفة السبب .

ترى فيما تفكر هي الآن ؟ ما الذي يدور في داخلها ؟ في ذلك الجزء الخفي فيها؟ .. ضحك لأجلها.. لا ليرضي نفسه. ولكن ها هي ذي تنتفض ، عيناها تبللهما الدموع المنهمرة وقد ارتسمت على وجهها آيات الألم ، أما هو فما يزال يضحك لكل الغضب و الشوق و خيبة الأمل في داخله .. يضحك من كل ما هو عاطفي في هذه الدنيا.. من كل ما يبكي لأجله الناس الطيبون .. من الكلاب الضالة في الطرقات .. من الجياد المنهوكة القوى حين تلسعها السياط فتتكفىء .. من الضعاف حين يحطمهم الأقوياء القساة المتبجحون .. من الطيور الصغيرة عندما تموت على الطوار .. من سوء

التفاهم أينما كان .. من الصراع الأزلي.. من القسوة .. من كل ما يجعل الانسان خبيثا مؤذيا .

يا للخسة ! غير الغضب ضحكته و تدافقت الدموع في عينيه . ها هما في قاعة الدراسة الخالية .. وحدهما في عزلتهما و حيرتهما .. كأخ وأخت. كلاهما يريدان نفس طهارة الحياة و وداعتها.. كلاهما يرغبان في مشاركة أحدهما الآخر في حقيقته و مع ذلك فكل منهما .. بكيفية ما .. غريب عن الآخر بعيد . ووحيد.

سمعها وهي تكتم نشيجها عندئذ انقلب كل شيء رأسا على عقب . رأى نفسه يبكي بدموع حقيقية كطفل صغير كما لو أن شيئا قد حدث بالفعل . أخفى وجهه بذراعيه ، و راح صدره يعلو و يهبط .. فكر في التخلص من حياته فلو أن الأمور سارت على هذا النحو من الأفضل له إذن أن يموت .

لم يدر كم من الوقت مضى عليه و هو يبكي ولكنه تنبه فجأة إلى أنه لم يعد أو يضحك و أن

الحجرة قد ران عليها السكون .. يا له من أمر مخز. خشي أن يرفع رأسه و أن ينظر إلى معلمته .. إنه أمر مقزز.

– بن .

أتاه صوتها هادئا وقورا، كيف يجرؤ إذن على النظر إليها مرة أخرى؟

– بن .

رفع رأسه، كانت عيناها قد جفتا .. بدا وجهها أشد إشراقا من ذي قبل و أكثر جمالا مما مضى.

– جفف دموعك، أرجوك . ألديك منديل؟

* بلى

مسح دموعه.. مخط أنفه. كم من الآلام على هذه الأرض؟ ! كم كان كل شيء كئيبا !

– كم عمرك يا بن ؟

* عشر سنوات.

– ماذا ستفعل ؟ أعني..

* لا أدري.

– و والدك؟

* حائك ثياب.

– هل تعجبك الحياة هنا؟

* أظن ذلك.

– ألديك إخوة.. أخوات؟

* ثلاثة إخوة و أختان.

– ألم تفكر أبدا في الرحيل الى مدن أخرى؟

كان غريبا أن تتحدث إليه كما لو كان رجلا و أن تنفذ إلى دخيلة نفسه.

* نعم.

– أين؟

* لا ادري. نيويورك فيما أظن. ربما المدينة القديمة.

– المدينة القديمة؟

* ميلانو. مدينة أبي.

- أوه.

ود أن يسألها عن نفسها.. من أين أتت و إلى أين تمضي .. كان يتمنى أن يصبح رجلا لكنه كان خائفا . ذهبت هي إلى غرفة الملابس و أحضرت معطفها و قبعتها و حقيبتها ثم شرعت ترتدي المعطف.

- غدا لن أحضر.. الآنسة ثورب قد استعادت عافيتها و سأرحل أنا.

أحس بمنتهى الحزن لكنه لم يقو على التفكير في شيء يقوله . أحكمت حزام معطفها و سوت قبعتها فوق رأسها و ابتسمت . يا إلهي! ما هذا العالم ؟ في البدء جعلته يضحك ثم جعلته يبكي.. الآن يحدث كل هذا . إنه يحس بوحدته من بعدها .. إلى أين ستذهب ؟ ألن يراها مطلقا بعد اليوم ؟

- يمكنك أن تنصرف يا بن.

ولكنه وقف ينظر إليها دونما رغبة في الذهاب. كان يريد أن يقبع في مكانه ينظر

إليها.نهض من مقعده ببطء وتوجه إلى غرفة الملابس ليحضر غطاء رأسه.

سار نحو الباب يعذبه الإحساس بالوحدة .. استدار لينظر إليها للمرة الأخيرة .

* إلى اللقاء يا آنسة ويسيج.

– إلى اللقاء يا بن.

انطلق يعدو مجتازا فناء المدرسة بينما وقفت المعلمة البديلة تتابعه بعينيها. لم يكن يدري فيما يفكر لكنه كان يعرف أنه حزين للغاية و أنه يخشى أن يلتفت خلفه ليرى ما إذا كانت تنظر إليه . و فكر أنه لو أسرع ربما أمكنه اللحاق بدان سيد و ديك كوركوران و باقي الصبية ، و ربما استطاع كذلك الوصول في الوقت المناسب ليشاهد قطار البضاعة و هو يغادر المدينة . حسن . لن يعرف أحد .. على أي حال لن يعرف أحد ما حدث و كيف أنه ضحك و بكي .

راح يعدو طوال المسافة إلى الطريـق جنوبـي الباسفيك . كان الصبية جميعا قد ذهبوا و كذا ذهـب القطار .. جلس تحت أشجار الكـافور .. يـا لـه مـن عالم تسوده الفوضى. و أنشأ يبكي من جديد..

* * * * *

ثعبان

وليم سارويان

بينما كان يسير في المنتزه في أحد أيام مـايو اذ بـه يـرى ثعباتـا صغيرا بنـي اللـون يمـرق بيـن الحشـائش و أوراق الشـجر فتعقبـه ممسكا بغصن طويل و قد داخله احساس بذلـك الخـوف الغريـزي، الذى ييتملك الانسان، من الزواحف .

قال في نفسه "ذلك هو رمز الشر في نظرنا" ثم لمس الثعبان بالغصن فراح يتلوى و يترعص، و رفع الثعبان رأسه ثم ضرب الغصن و انطلـق خـلال الأعشاب مسرعا في خوف و الرجل في اثره .

كان الأمر طريفا غاية الطرافة يتطلب مهارة فائقة و لكنه اعتزم أن يبقى مع الثعبان لحظة علـه يكتشف شيئا من أمره .

لقد جعلـه ذلـك الثعبان الصغير البني اللـون يتوغل في المنتزه حتـى اختبأ عن الأنظار فصارا وحيدين معا . و راوده احساس بالذنب في أنـه بتعقبه للثعبان انما ينتهك بعض لوائح المنتزه. و راح يرتب جوابا يرد به على من قد يفضح أمره، ربما يقول " انني أدرس أخلاقيات العصر "، أو " انني مثال و أقوم بدراسة تكوين الزواحف " وعلى أي حال ففي استطاعته أن يجد تفسيرا منطقيا للأمر. لن يقول أبدا أنه كان ينتوي قتل الثعبان ,

وسار بجوار الثعبان المذعور. كان يقفز من حين لآخر لأجل ألا يفقد أثره حتى خارت قـوى الثعبان و توقف عن الحركة، فاستند هو إلى عقبيـه حتى يتمكن من رؤية الثعبان عن كثب. و اعترف لنفسه بأنه كان يخشى أن يلمسه بيديه، فإن لمس الثعبان أشبه بلمس السر في عقل الإنسان، شيء يجب على الإنسان ألا يخرجه إلى النور...

ذلك الانزلاق الأملس و هذا الصمت المروع كانا ذات يوم صورة من صور الانسان و ها هو يعود اليها كآخر شكل من أشكاله و ها هي الثعابين تسعى علي الأرض كأنه لم يقع تغيير البتة.

إن آدم و حواء - كما قالت التوراة ، وتبعا لنظرية التطور - هما أول ذكر و أنثى و هما بدء الخليقة.

يا له من ثعبان جميل كان نظيفا رشيقا محدد الملامح. أحس بالرهبة من شعور الثعبان بالخوف و ذعر أذ فكر فيما لو أن ثعابين الحديقة كلها قد هبت لنجدة ذلك الثعبان الصغير البنى اللون ، فحاصرته بصمتها المخيف و هيئتها المرعبة الشريرة . لقد كانت حديقة كبيرة ، فلا بد انها تحوى آلاف الثعابين . ولو اكتشفت الثعابين كلها ما يفعله مع ذلك الثعبان الصغير لاستطاعت بسهولة أن تشل حركته .

هب يتلفت حواليه . كان السكون يشمل المكان فبدا الأمر أشبه بذلك الصمت الذى يسبق بداية القراءة فى الانجيل . وسمع صوت طائر يتنقل من غصن على غلة قريبة ، ومع ذلك فقد كان

وحيدا مع الثعبان . ونسى أنه فى حديقة عامة بمدينة كبرى . و مرقت طائرة فوق رأسه ولكنه لم يرها أو يسمعها. لقد كان الصمت يطبق على المكان ، كما كان نظره قد تسمر على الثعبان الماثل أمامه. وجها لوجه فى الحديقة مع الثعبان فى مستهل عام ١٩٣١ .

وعاد فجلس القرفصاء محاولا الاقتراب من الثعبان، وضحك من أعماقه لفكرة وجود الثعبان بلحمه ودمه أمامه ..شيئا مستقلا عن ذاته..منبسطا على سطح الأرض ودون أن يكون جزءا متمما لشخصه. انه أمر مذهل حقيقة ..لقد كان يخشى ، فى بداية الامر ،أن يتحدث بصوت عال ولكنه بمرور الوقت أخذت تزايله رهبته وبدأ فى الحديث اليه بالانجليزية .. لقد كان جميلا أن يتحدث الى الثعبان .

قال:" حسن ، هاأنذا بعد كل هذه السنين، شاب صغير أعيش على نفس الأرض و تحت نفس السماء و بنفس المشاعر والاحاسيس و ها أنت أمامى كما أنت ، نفس الموقف..ماذا تنوى أن تفعل؟ أتهرب ؟ لن أدعك تهرب . ماذا يدور فى

رأسك؟ كيف ستدافع عن نفسك، إنى أنوى القضاء عليك فهذا أمر ضرورى للانسان ."

وراح الثعبان يتلوى أمامه عاجزا عن أن يتفادى ضربات الغصن وفى الوقت نفسه أخذ يضرب الغصن عدة مرات حتى أصابه اليأس والتعب فسحب الغصن و سمع الثعبان يقول"أشكرك."

بدأ يصفر للثعبان ليرى إن كانت الموسيقى تؤثر على حركاته أو تجعله يرقص . فصفر له نغمات أوبرا شوبرت " أنت حبى الوحيد" ، ولكن، الثعبان لم يرقص. فقال فى نفسه " ربما أجدت معزوفة ايطالية " .وبدأ فى ترديد لحن " حواء المتقلبة ". وكان ينطق الكلمات ، عن عمد ، بطريقة خاطئة حتى يسلى نفسه . ثم حاول إحدى مؤلفات برامز الراقصة ، ولكن الموسيقى لم تؤثر اطلاقا على الثعبان . لقد كان تعبا خائفا يرغب فى الهرب .

وفجأة عجب من نفسه اذ خطر له أن يدع الثعبان ينسل بعيدا ويضيع فى العالم السفلى لامثاله. ولكن لماذا يجعله يهرب؟

التقط قطعة صخرية ثقيلة من الارض وفكر ثم قال " سأحطم رأسك بهذه الصخرة وأراك وانت تموت . سأحطم هذه الرشاقة الغادرة وذلك الجمال الآثم ".

ولكن الامر كان غاية فى الغرابة إذ أنه لم يستطع أن يلقى بالصخرة على رأس الثعبان . وبدأ فجأة يشعر بالأسف نحوه . وقال وهو يلقى بالصخرة على الارض " آسف.. أسألك العفو.. لا أكن لك إلا كل حب."

أراد أن يلمس الثعبان بيديه و أن يمسك به ليتعرف على حقيقته و لكن الأمر كان غاية في الصعوبة فقد كان الثعبان خائفا و في كل مرة مد فيها يده ليلمسه كان يستدير إلى مهاجمته فيقول له " أني أكن لك كل الحب. لا تخف. لن أصيبك بسوء."

و بسرعة رفع الثعبان من الأرض فأدرك حقيقة ملمسه ثم أسقطه و قال " الآن عرفت الحقيقة، الثعبان بارد الملمس. نظيف، و لكنه صغير الحجم كما كنت أعتقد "

و ألقى بابتسامة إلى الثعبان الصغير البني اللون و قال " اذهب أنت الآن . لقد انتهت فترة الاستبيان .انك ما زلت على قيد الحياة .لقد كنت في حضرة الإنسان ومع ذلك فأنت حي . ولتذهب الآن " .

لكن الثعبان لم يذهب . كان يمتلىء خوفا ورعبا. شعر بالخزى و الأسف الشديدين من فعلته هذه و قال في نفسه " يا يسوع لقد عذبت هذا الثعبان الصغير. لن ينسى أبدا. سيذكرني دائما و أنا منكب عليه " و استطرد يخاطب الثعبان " بحق السماء عد إلى ذويك. احك لهم ماذا رأيت أنت نفسك بعينيك هاتين . أحك لهم عما شعرت به و عن حرارة يد الأنسان و أخبرهم عما فعلته في حضرتي ."

و فجأة انزلق الثعبان بعيدا عنه فقال له "أشكرك " و راح يضحك من أعماقه أذ رأى الثعبان يلقي بنفسه بين الحشائش و الأوراق مبتعدا عن الإنسان.

قال " رائع . أسرع إليهم و قل لهم إنك كنت في حضرة الأنسان و إنك لم تقتل، و فكر في كل

الثعابين التي تعيش و تموت دون أن تلقى الإنسان. فكر فيما يعنيه هذا الأمتياز بالنسبة لك ".

و بدا له أن حركات الثعبان الصغير هي تعبير حقيقي عن الفرح العميق فشعر ببالغ السرور و قفل راجعا في طريقه الى الممر مواصلا سيره.

وفي المساء، بينما كانت تجلس بجانب البيان و هي تعزف بهدوء قال لها :" لقد حدث شيء طريف ." قالت متسائلة و هي تستمر في العزف : "شيء طريف ! "

أجاب : " نعم. بينما كنت أسير في الحديقة رأيت ثعبانا صغيرا بني اللون ". فتوقفت عن العزف و استدارت بمقعدها متجهة اليه بنظرها وهي تسأله :" ثعبان ؟ ما أقبح ذلك !"

رد قائلا : لا.. لقد كان جميلا.

سألته : و ماذا عنه ؟

أجاب : أوه.. لا شيء.. لقد أمسكته و لم أدعه للحظة.

قالت : لكن لماذا ؟

أجاب : ليس هناك سبب قوي على الإطلاق.

عبرت الحجـرة ثـم أخـذت مجلسـها بجانبـه و هي تنظر إليه متعجبة ثم سألته :

- احك لي كل شيء عن الثعبان.
- لقد كان جميلا.. لم يكن قبيحـا مطلقـا.. عندمـا لمسته أحسست بنظافته.
- أنني سعيدة للغاية.. وماذا أيضا ؟
- لقد كنت أرغب في قتل الثعبان و لكني لم أستطع.. لقد كان جميلا.
- إنني مسرورة قل لي كل شيء.
- هذا كل ما في الأمر.
- لا. ليس كذلك. أعلم أن ليس الأمر كذلك.. قل لي كل شيء.
- إنه أمر طريف. لقد كنت سأقتل الثعبان و لا آتي الى هنا أبدا.
- ألا تخجل من نفسك ؟
- بالطبع نعم.

- و ماذا أيضا ؟ كيف رأيتني و أنت تنظر إلى الثعبان أمامك ؟
- ستغضبين.
- هراء..إنه من العسير علي أن أشعر بالغضب نحوك. قل لي إذن.
- حسن.. لقد فكرت في أنك جميلة و لكن شريرة.
- شريرة.
- قلت إنك ستغضبين.
- ثم ؟
- ثم لمست الثعبان.. و لم يكن ذلك بسهل علي، و لكني التقطته بيدي. ولكن ماذا تريدين من هذا كله ؟ لقد قرأت العديد من الكتب التي تدور حول أشياء كهذه. ماذا يعني أنني أمسكت ثعبان ؟

راحت تضحك ضحكة ناعمة ذكية ثم قالت :

- لماذا ؟ أن ذلك يعني ببساطة أنك أحمق. رائع.. أليس كذلك ؟

- أهذا ما يقوله فرويد.

أجابت و هي تضحك:

- نعم هذا رأى فرويد.
- حسن على أى حال . لقد كان جميلا أن أطلق سراح الثعبان
- هل قلت لى أبدا انك تحبنى..
- أنت التى تعرفين ..فأنا لا أذكر كلمة أو اثنتين مما أقول لك.
- لا.. لم تقلها أبدا.

ثم عاودت الضحك و هى تشعر بسعادة مفاجئة تنتابها ثم قالت

- لقد كنت دائما تتحدث عن أشياء أخرى كثيرة لا ترابط فيها فى أشد الاوقات حرجا.
- هذا الثعبان كان صغيرا بنى اللون .
- وهذا يفسر الامر.
- عما تتحدثين بحق الجحيم؟
- إننى سعيدة جدا لانك لم تقتل الثعبان.

ثم عادت إلى البيان ووضعت يديها خفيفتين على المفاتيح.

قال :

- لقد صفرت للثعبان بعض الأغاني.. قطعة من سيمفونية شوبرت الناقصة. أحب أن أسمعها. أتعرفينها.. تلك التي عزفت في الكوميديا المسماة " وقت التفتح ".. ذلك المقطع الذي يبدأ ب" أنت حبي الوحيد ."

بدأت في العزف و هي تشعر بعينيه على شعرها.. على يديها.. على جيدها.. على ظهرها و ذراعيها.. يتفحصها كما كان يتفحص الثعبان.

* * * * *

ويليام سيدنى بورتر
(أو . هنرى)

أو هنرى (١٨٦٢ - ١٩١٠) هو الإسم الذى عرف به ويليام سيدنى بورتر ، وهو قاص أمريكي ، أحد أعلام القصة القصيرة فى الأدب الغربى . صور فى قصصه العامة فى مدينة نيويورك . تتسم مجموعاته القصصية باستخدام الفن الساخر فى إظهار نقائص شخصياته ونهاياتها غير المتوقعة . يؤكد أو هنرى رفضه للزعم بأن مدينة نيويورك ليس بها سوى أربعمائة فرد يستحقون المعرفة. من هنا جاء عنوان مجموعته القصصية The Four Million

وقصة " تائه فى عرض الأزياء " تعتمد أساسا على المفارقة الدرامية ، وبرغم بساطة الموضوع وطرافته فإن بداخل هذه القصة حزنا دفينا حيث الأحلام المكسورة والفرص الضائعة . فالشاب الفقير يريد أن يرتبط بفتاة ثرية والفتاة الثرية تريد الإرتباط بشاب مكافح ، ولكنهما إذ يلتقيان يفترقان بسبب "عرض الأزياء ." تتصور الفتاة أن هذا الشاب هو مجرد فتى مدلل ذلك لأنه يرتدى حلة سهرة أنيقة وهى لا تدرى ما فعله لكى يفوز بهذه الحلة ، والشاب المكافح يميل للفتاة التى تأسره ببساطتها ولكنه يعزف عن الإرتباط بها بسبب مظهرها الذى يدل على تواضع نشأتها حتى لايضيف هما إلى همه. يجهل الفتى أن الفتاة قد اقترضت ما ترتديه من ملابس من خادمتها لكى تخفى ثراءها .

يعود الفتى إلى غرفته الباردة . يفكر فى تلك الفتاة المدهشة ويتمنى لو كان قد أطلعها على حقيقة أمره ولكنه اختار أن يتصرف وما يتفق مع ثراء مظهره .

تعود الفتاة إلى قصرها وتحكى لأختها عن صورة فتى الأحلام وهى نفسها صورة الفتى الذى تركته توا بعد أن خدعتها سترته .

تعتمد المفارقة هنا على الكتمان . وتذكرنا قصة أو هنرى " تائه فى عرض الأزياء " ببؤرة الصراع عند ساورويان حيث " كل فرد مختبىء داخل نفسه ، يريد شيئا ودائما ما يحصل على سواه ... يريد أن يعطى شيئا ودائما ما يعطى غيره ."

* * * * *

تائه في عرض الأزياء

قصة أو. هنري

فى بهو غرفة نومه وقف السيد تـورز تشـاندلر يكوي حلة المساء بينمـا مكـواة تسـخن علـي موقـد غـاز صغير وأخـري تدفـع بقـوة جيئـة وذهابـا كـي تحدث الثنيات المطلوبة والتي سوف ترى بوضـوح ممتدة في خطوط مستقيمة بدايـة مـن حـذاء السـيد

تشاندلر الجلدي اللامع حتي طرف صداره القصير .

إن الكثير مما نراه في أبطالنا من وجاهة يعود لايماننا بهم ، والباقي يرجع لتخمينات أولئك الذين يدفعهم فقرهم وبساطتهم الي التماس الذرائع عن جهل .

رؤيتنا الثانية للسيد تشاندلر ستكون عندما يهبط سلم منزله . سيبدو بلا نقيصة، مرتديا ملابسه علي وجه اكمل ، هاديء الطبع ، واثقا وسيما . سوف تبدو هيئته تماما كأحد شباب نيويورك الذين يرتادون الأندية وسوف يبدو متأففا قليلا وهو مستعد لاستقبال متع سهرة المساء.

أما الدولارات الثمانية عشر التي كان يتقاضاها أسبوعيا فهي عنده بمثابة مكافأة شرفية . كان يعمل لدى أحد المهندسين المعماريين . عمره اثنان وعشرون . فن العمارة في نظره هو الفن الحقيقي . كان يعتقد اعتقادا جازما ان مبني "فلاتيرون" عمل غير مكتمل إذا ما قورن تصميمه

بمبني الكاتدرائية العظيمة في ميلانو ولكنه لم يكن يجرؤ علي الجهر بهذا الرأي في نيويورك .

كان تشاندلر يوفر من مرتبه الأسبوعي دولارا وبعد مضي عشرة أسابيع يشتري بما تراكم لديه من نقود حلة سهرة تليق بواحد من علية القوم ينتزعها بعد مساومة مع زمن السلف الضنين .

وهكذا يضع تشاندلر نفسه في مصاف الرؤساء وأصحاب الملايين ويقود نفسه الي ميدان حيث حياة أكثر بهاء وتألقا وحيث يستمتع بعشائه في جو تسوده الرفاهية . فالمرء يستطيع بمبلغ عشرة دولارات أن يقوم بدور الثري المتسكع لبضع ساعات . فهومبلغ يوفر وجبة معتبرة ، وقنينة خمر تحمل علامة تشي بعراقتها ، وبقشيشا مناسبا وسيجارة وأجرة التاكسي وما شابه ذلك . وتشاندلر يعتبر أن هذه الليلة المختارة المفرحة - من بين سبعين ليلة مملة - تعادل نعمة ميلاده من جديد . فالفتاة لا تواجه ، في بداية حياتها ، مجتمعها إلا مرة واحدة وتبقي حلاوة هذه المرة

خالدة في ذاكرتها مهما تقدم بها العمر وحال لون شعرها .

أما في حالة تشاندلر فكان انقضاء عشرة اسابيع يحمل له فرحة تشوبها الحدة و الاثارة و الجدة تماما كالمرات الأولى . يجلس بين قوم من السراة تحت اشجار النخيل . تلفه دوامة خفية من الموسيقى . يرقب صفوة القوم و يرقبونه . إن رقصة الفتاة الأولى بفستانها التلى لا تقارن بما هو فيه الأن .

راح تشاندلر يسير بطول شارع برودواي وهو يرتدي حلة استعراضه المسائي.

في تلك الليلة كان هو العرض و المشاهد معا ، أما في الليالي التسع و ستين الباقية فكان يتناول عشاءه الذي لا يتغير نوعا و سعرا وهو يرتدي ملابس خشنة رثة . أما الغذاء فيتكون من بضع ساندوتشات و قدح البيرة ، يتناوله علي طاولة خاوية بصالة ملحقة بغرفة نومه تعربد فيها دوامات الرياح .

كان دائما علي استعداد لأن يفعل ما يفعله ، فهو نعم الابن لمدينة الصخب و المرح . إن ليلة واحدة تحت الاضواء المتلألئة تعوضه عن العديد من الليالي المظلمة .

طال سير تشاندلر حتي بدا طريق "فورتيز" متقاطعا مع طريق "بريم روز" الكبير الوضاء . المساء لم يزل بعد في بدايته . عندما يصبح أحد "الصفوة" مرة كل سبعين يوما فإنه يهوي بالطبع أن يطيل أمد هذه المتعة .

العيون من حوله لامعة ، شريرة، فضولية ، معجبة ، مستفزة، مغرية . كان ملبسه و هيئته ينطقان بأنه كرس نفسه لهذه الساعة من المتعة و الترويح.

حط في أحد الاركان وراح يفكر فيما إذا كان عليه أن يستدير عائدا الى المطعم الفخم العريق الذي اعتاد أن يتناول عشاءه فيه في امسيات رفاهيته الخاصة.

فـي تلـك اللحظـه اندفعت احـدي الفتيـات ، دارت بخفـة حـول الركـن ، انزلقت فـوق رقعـة الجليـد . سقطت مرتطمة بشدة على الممر الجانبي . انحنـي تشاندلر يساعدها على الوقوف على قدميها مواسيا ومجـاملا . مشت الفتـاة علـي سـاق واحـدة حتـي بلغت حائط المبني ، استندت عليه ثم التفتت تشكره في وقار .

"أظن أن كاحلى قد التوى ، عندما سقطت فوقه "

سألها تشاندلر " هل يؤلمك كثيرا ؟ "

" فقط عندما ارتكز بثقلى عليه . أعتقد أننى سوف أتمكن من السير في خلال دقيقة أو اثنتين . "

سألها "أبامكاني أن أسدي لك أي خدمة ؟" أضـاف الشاب مقترحا "سوف استدعي لك سيارة اجـرة أو ..." أجابت الفتاة برقة وود " أشكرك ، إننـي علـي ثقة من أنك لست بحاجة لأن تشغل نفسك أكثر مـن هـذا . الأمـر كلـه غبـاء منـي . إن كعبـي حذائـي مفلطحان بشكل بشع ولا استطيع لومهما باية حال".

نظر تشاندلر إلى الفتاة مكتشفا انها قد جذبت انتباهه بسرعة . كانت جميلة علي نحو راق ، اجتمعت في عينيها النعومة والطيبة . ارتدت ثوبا أسود اللون بسيطا بدا كما لو كان زيا خاصا بإحدى فتيات المتاجر . كشف شعرها البني الداكن اللامع عن خصلات متموجة تحت قبعة رخيصة من القش الأسود ولا يزينها سوي شريط من القطيفة و حلية لها ألوان قوس قزح ...من الممكن اعتبارها نموذجا مثاليا للفتاة العاملة المعتدة بنفسها . فجأه لمعت فكرة في ذهن المعماري الشاب ، لم لا يسألها أن تتعشي معه ؟ هذا ما كان ينقص انجازاته الدورية الرائعة .هكذا يصير فصل رفاهيته القصير مضاعف المتعة إذا ما ظفر برفقة سيدة وهذه سيدة بحق .

كان علي ثقه من هذا . لقد حسمت الأمر بتصرفاتها وحديثها ، و برغم بساطة مظهرها شعر بانه سيكون سعيدا اذ يجلس بالقرب منها الي مائدة ما.

جالت هذه الخواطر في ذهنه بسرعة وقرر أن يسألها . كانت هذه بالطبع مسألة ذوق فغالبا ما تهتم الفتيات العاملات اللاتي يتقاضين أجورا بالشكليات في مثل هذه الأمور ، و عادة ما يتصف حكمهن علي الرجال بالتعسف ، وهن يعتقدن أن احكامهن الخاصة أصوب من التقاليد العقيمة . لو أنه انفق دولاراته العشرة انفاقا متعقلا لكان بامكانه أن يتناولا أفخر عشاء ممكن الامر الذي يشكل تجربة رائعة في حياة الفتاة الرتيبة ، و لا شك أن تقديرها الصريح لهذه اللفتة سيكون مصدر فخر وسعادة له .

وقال لها بلهجة يغلب عليها الوقار " أظن أن قدمك تحتاج إلى فترة من الراحة أطول مما تعتقدين، سأقترح عليك الآن وسيلة تريحين بها قدمك و في الوقت نفسه تسدين لي معروفا. لقد كنت بسبيلي لتناول طعام العشاء وحدي عندما تعثرت عند الناصية . تعالى معى شاركيني عشاءا شهيا ، نتبادل خلاله شيق الحديث ، وأنا على ثقة

من أنه بعد ذلك الوقت سوف يمكن لكاحلك أن يحملك إلى المنزل بيسر ."

رفعت الفتاة عينيها إلى تشاندلر متطلعة ملامحه الهادئة اللطيفة، طرفت عيناها اللامعتين و ابتسمت في براءة و قالت بصوت يشوبه التردد " لكننا لا يعرف أحدنا الآخر، أعتقد أن هذا لا يليق، أليس كذلك ؟ "

أجاب الشاب بسرعة "وأى ضير فى هذا ؟ " ثم أردف " اسمحي لي أن أقدم نفسي ، أنا السيد تورز تشاندلر. سأبذل كل ما في وسعي كي أجعل العشاء ممتعا و بعده إما أن أقول لك عمت مساء ثم أنصرف أو أرافقك إلى دارك بسلام. أيهما تختارين؟"

قالت الفتاة و هي تنظر الى ملابس تشاندلر التي بدت غاية في الأناقة " بمثل هذا الزي القديم، و القبعة أيضا ؟ ! "

قال تشاندلر بمرح " لا يشغلنك هذا.. أنا على يقين أنك أكثر روعة في هذا الزي من أي إنسانة أخرى حتى و لو ارتدت أكثر ثياب السهرة أناقة. "

ردت الفتاة مؤكدة " ما زال كاحلي يؤلمني. " قالت هذا و هي تحاول مشية لم تخل من عرج. أردفت " أعتقد أني سأقبل دعوتك يا سيد تشاندلر، بوسعك أن تدعوني الآنسة ماريان. "

قال المهندس الشاب بسعادة " هلمي إذن يا آنسة ماريان " ثم قال بحفاوة شديدة " لن تمشي كثيرا، هناك في الميدان القريب مطعم محترم للغاية. بإمكانك أن تستندي إلى ذراعي... هكذا... فلتمشي ببطء.. لا أخفي سروري أنك وقعت على الجليد لأن العشاء وحدي أمر موحش جدا. "

استقرا إلى مائدة أحسنا اختيارها. النادل يحوم حولهما منتظرا إشارة منهما. بدأ تشاندلر يمارس متعته الحقيقية التي يجلبها له خروجه الدائم.

لم يكن المطعم على درجة عالية من الفخامة كغيره من مطاعم برودواي التي دائما ما كان تشاندلر يفضلها، لكنه لم يكن يختلف عنها كثيرا.. شغلت الموائد حولهما بالعديد من الزبائن المترفين. الأوركسترا الهادىء يعزف بنعومة مما يسمح بمتعة الحوار. أما المطبخ و الخدمة فكانا فوق مستوى النقد. اتخذت الفتاة لنفسها وضعا أضاف إليها تميزا فوق جمال وجهها و مظهرها الطبيعي وبرغم القبعة والثوب الرخيصين. ليس من شك في أنها ألقت نظرة على تشاندلر لتتبين هيئته المرحة رغم رباطة جأشه.. تتأمل عينيه الزرقاوين المضيئتين بنظراتهما الصريحة. لم تخل نظرتها من الإعجاب الذي بدا على قسمات وجهها الساحر.

أصابت تورز تشاندلر حالة من جنون العظمة وحب التظاهر جعلته يبدو كالقروي الساذج . في برودواي كانت مظاهر الأبهة و العراقة تحيط بتشاندلر فتحاصره العيون من كل جانب. كان المفروض أن يكون دوره في هذه الكوميديا هو

دور الفراشة المتأنقة لليلــة واحدة. ارتـدى ملابـس الدور ولكن ملائكة الخير عنده لم تكن تملك القــدرة على أن تمنعه من لعب هذا الدور.

راح يــثرثر للآنســة ماريــان عــن مشـــارب الشاي، و أندية الجولف، وركوب الخيل، و الحفلات الراقصة، و الرحلات الى الخارج . لمـح إلـى يخـت يرسو في "لارشمونت". أدرك أنـها تأثرت بـالغ التأثر بكلامه المبهم و مـن ثـم زاد مـن تلميحاتـه العفويـة فراح يتحدث عن الـثراء الفــاحش و عـن بعـض الأشياء التي يذكرها العامة بكثير من الإحترام.

كان يوم تشاندلر هذا قصير الأجـل لـذا حـاول أن يعتصر منه أقصى ما يمكن أن تصل إليه يداه أو بصره. ولكنـه رغم هذا أمكنـه أن يكتشـف معـدن الفتاة الطيب يبرق، أكـثر مـن مـرة، خـلال الضبـاب الذي أحدثته أنانيته.

قالت"حياتك هذه التـى تتكلـم عنـها تخلـو مـن الـهدف ، ولا طـائل ورائـهـا. ألا تشـغل نفسـك بعمـل يجعلك تـهتم بحياتك بشكل أفضل ؟"

قال مستنكرا " عزيزتى الآنسة ماريان ، العمل !!
.. فكرى فى لحظات الاستعداد يوميا للعشاء واجراء نصف دستة مكالمات بعد الظهيرة . فكرى فى وجود شرطى عند كل منحنى يتحفز للوثوب على عربتك ليجرك الى قسم الشرطة ! اذا تجاوزت سيارتك سرعة عربة يجرها حمار . نحن الذين لا يعملون أشقى الناس على وجه البسيطة ."

انتهى العشاء . نقد تشارلز النادل بسخاء. وسار الاثنان الى الناصية التى التقيا عندها . مشت الآنسة ماريان مشية لا عرج فيها.

قالت له "اشكرك على الوقت اللطيف ، لا بد أن أسرع إلى بيتي الآن . لقد أعجبنى العشاء جدا يا مستر تشاندلر".

صافحها تشاندلر وهو يبتسم ابتسامة ودودة ثم ذكر شيئا عن مباراة البريدج فى ناديه . راقبها للحظة بينما كانت هى تسرع فى اتجاه الشرق . عثر على سيارة أجرة تقله الى بيته على مهل .

فـي غرفتة الباردة ، جلس تشاندلر بعد أن

رتب ملابس السهرة استعدادا لاجازة طولها تسعة و ستين يوما . ثم أخذ يفكر عميقا . قال مخاطبا نفسه "يا لها من فتاة مدهشة . لا بأس بها اطلاقا .. أقسم على ذلك .. حتى لو كانت مضطرة لأن تعمل .. ربما لو كنت أطلعتها على حقيقة أمرى بدلا من هذه الضجة . لكن ...، لكن .. اللعنة ! كان لزاما علي أن أتصرف بما يتفق و مظهرى ."

أستمر ، ذلك الشجاع الذى ولد و نشأ في أحد أكواخ قبيلة هندية بمانهاتن ، استمر يتحدث الى نفسه على هذا المنوال .

تركت الفتاة مضيفها . أسرعت تقطع المدينة حتى وصلت الى قصر جميل عريق يقع بعد مسافة مربعين تجاه الشرق بمواجهة طريق كنيسة الملائكة . دلفت مسرعة . صعدت الى حجرة علوية حيث سيدة جميلة ترتدى ملابس منزلية دقيقة الصنع و تنظر بقلق من النافذة . تقول "آه ، أيتها الطائشة . متى تقلعين عن اخافتنا بهذه الطريقة ؟ لقد انقضت ساعتان منذ خروجك بفستان و قبعة

مارى المهلهلين . لقد انزعجت أمك فأرسلت لويس بالعربة خلفك عساه يجدك . أنت فتاة طائشة عديمة التفكير ."

ضغطت الفتاة زرا . حضرت خادمة فى التو واللحظة فقالت لها "مارى ، أخبرى ماما أن الآنسة ماريان قد عادت ."

" لا تؤنبينى يا أختاه . لقد أسرعت الى مدام ثيو لأطلب منها أن تستخدم بطانة بنفسجية اللون بدلا من الوردية . كان فستان و قبعة مارى هما ما احتاجه بالفعل كى يعتقد الجميع أننى عاملة بمتجر."

" لقد انفض العشاء يا عزيزتى . لقد تغيبت طويلا بالخارج" .

" أعرف ، لقد انزلقت على الممشى و التوى كاحلى . لم أستطع المشى. لهذا ذهبت الى أحد المطاعم و مكثت هناك حتى تحسنت حالتى ، لأجل هذا تأخرت ."

جلست الفتاتان الى جوار النافذة تتطلعان الى أنوار العربات المتدفقة على الطريق .

أراحت الصغرى رأسها على حجر أختها ، قالت حالمة " يوما ما سنتزوج .. كلتانا .. لدينا الكثير من المال . علينا ألا نخيب ظن الناس فينا. أتريدينى أن أحكى لك عن الرجل الذى أستطيع أن أحبه يا أختاه ؟ " قالت الأخرى مبتسمة " اكملى ، أيتها البلهاء ."

اندفعت ماريان تقول "أستطيع أن أحب رجلا له عينان حانيتان لونهما أزرق داكن ، رقيق يحترم الفتيات الفقيرات . زد على ذلك أنه وسيم و طيب ، لا يعبث هنا أو هناك . أستطيع أن أحبه إن كان طموحا .. ان كان لديه هدف أو عمل يشغل به نفسه في هذا العالم . لا يهمنى كم هو فقير ان كان باستطاعتى أن أساعده كى يشق طريقه الى النجاح. لكننا يا أختاه العزيزة نقابل ذلك النوع من الرجال الذين يعيشون حياة خاملة يتسكعون فى النوادى و المجتمعات . لا أستطيع أن أحب رجلا على هذا الطراز حتى لو كانت عيناه زرقاوان ،

حتى لو كان شديد الحنو على الفتيات الفقيرات اللاتى يقابلهن فى الطريق .



اميليا باليونين

(١٩٢٩ - ؟)

اميليا بـاليونين أديبــة روسـية مقلــة . كتبـت القصة القصيرة و نشر لها العديد من القصـص فـى المجلات المتخصصة و غير المتخصصة . لـم تنـل حظها من الشهرة حيث الإهتمام ينصب علـى أعـلام الأدب الروسى أمثال تولستوى وجوركى وتورجنيـف و بوشكين فكانت مثل قطرة فى بحر .

وقع الاختيـار علـى قصـة " انتظـار" لبسـاطتها ولما تزخر بــه مـن مشـاعر رقيقـة وأصيلـة . تعتمـد القصـة علـى جماليـات المكـان و الزمـان ، فالمؤلفـة ترسم ببساطة متناهية صورة جميلة تزخر بالتفاصيل الدقيقـة فكأنهـا تقـدم لنـا قطعـة حيـة مـن حيـاة ريفيـة بسـيطة مثـل الكـوخ ، والدخـان الأزرق البـاهت ،

والنباتات التى قطفت حديثا، وجرة اللبن الدافئة ، وفطيرة البطاطس الساخنة ، والحذاء المطاطى الضخم، وحكايات الأب على المائدة عن الكراكى والطائر ذى المنقار الأخضر .

فى بداية الأمر تخدعنا هذه القصة ببساطتها. فالحدث يقتصر على انتظار فتاة لمدة ساعة و نصف الساعة عند الكنيسة القديمة رغم هبوب رياح ثلجية ولكن من تنتظر لا يأتى . وتبدو الفتاة المنتظرة – ظاهريا – ضعيفة وسط الطبيعة القاسية . ولكن عندما تنتقل المؤلفة عبر الزمان والمكان إلى طفولة الفتاة ندرك أن سبب صمودها هو ما تكتنزه داخلها من دفء المشاعر . فالفتاة إبنة صياد فقير وأم ريفية صبورة مخلصة ، وبرغم بساطتها نراها تنجح فى تأصيل القيم الريفية الجميلة داخل ابنتها . تصور لنا باليونين الفتاة وهى تحمل معها رموز حياتها البسيطة بدلالاتها العميقة أينما تذهب فتحميها تلك الرموز من اليأس والوحدة ، فهى لا تجد غضاضة فى انتظار ذلك الذى لا يأتى وتقول " لا بد أنه سيكون هنا فى الغد، وكذا أنا ... سأكون صبورة

..." يكفيها إذن أنها تتحلى " بفضيلـــة " الإنتظـــار تماما كما علمتها أمها .

* * * * *

انتظار

قصة : اميليا باليونين

كان موعدنا السادسة فى نفس المكان عند الكنيسة القديمة . ومضيت أقطع الحارة الضيقة .. هبت ريح ثلجية محدثة ما يشبه الدوامة . شعرت بالبرد يصل الى عظامى . خطر لى أننى قد أجد فى أحد أعمدة السكة الحديد العريضة ملاذا من البرد فانزويت وراءه . رفعت ياقة معطفى و دسست يدى قدر ما أستطيع فى جيبى . كان الجو باردا لدرجة مؤلمة .

المفروض أنه سيأتى من حيث تهب الريح ، متأخرا كالعادة ، مسرع الخطى فأشعر بالدفء يسرى فى

أوصالي .. سيفك أزرار معطفه و يخلع ملفحته الدافئة و حالما يرانى سيبتسم و بسرعة يلف ملفحته و يزرر معطفه .

اشتدت وطأة البرد . السادسة والدقيقة العشرون وهو لم يأت بعد . لا بأس سأنتظر . أمعنت فى اخفاء رأسى بياقة معطفى و أنا أنظر الى أسفل حيث قدمى المتجمدتين . كانت الريح تجرف الجليد أمامها تجاه العامود . استقرت الثلوج خلف قدمى كبساط من الزغب الأبيض لكن هذا لم يبعث فيهما الدفء .

السادسة و النصف ، لابد أنه نسى أن موعدنا كان السادسة فعادة ما نلتقى فى السابعة . سأنتظره حتى السابعة فأنا صبورة و أحتمل الانتظار . أستطيع الانتظار من أجل تلك اللحظات السعيدة الرائعة مع الرجل الذى أحب .

لطالما انتظرت حتى ولو لم يكن هناك من أنتظر .. قضيت حياتى كلها أنتظر مترقبة و إن لم يكن هناك من أنتظر .

علمتنى أمى أن أتحلى بالصبر .. كانت تعرف كيف تنتظر الأمر الذى لا يفعله أحد مثلها . و كما يهتز الضوء رقيقا فوق قطعة نسيج هفهاف استرجعت طفولتى .. أسبلت عيني و استسلمت للذكريات . بدت أصابعى تلامس صورها المنسية تمسح عنها غبارها فتعود حية تنطق ...

الصباح الباكر وقد استيقظت لتوى لكننى مستلقية فى فراشى مغمضة العينين .. يا له من شعور عجيب ! كأننى محمولة على سحابة ناعمة .. و تهب نسمة رقيقة تهز السحابة فارتاح لهزتها فى حين يرقد الى جوارى شقيقى الطفل .. ضئيل الحجم هو ، معه دمية مربوطة بخيط -لكننى كبيرة .. قامتى أطول من المائدة و أعرف كل شىء .. أفهم الرسم المعلق على الحائط فى الموضع

الذى سقط ملاطه .. أعرف كذلك سبب ذلك الدخان الأزرق الباهت الذى يدخل الغرفة برائحته المثيرة .. يا لها من رائحة تجبرنى على النهوض من الفراش .. يعبق مطبخنا بتلك الرائحة .. تقف أمى أمام الفرن تحمر فطيرة البطاطس .

أندفع اليها ، أرتمى فى حضنها و رغم انشغال يديها – واحدة تمسك شوكة والأخرى سكينا – تضمنى إليها بمرفقها . تبتسم و عيناها تفيضان دفئا دون أن تتفوه بكلمة واحدة .. أعلم سبب صمتها .. انها تنتظر أبى ..

كل شىء فى كوخنا ينتظره ... أرضيته الرملية التى كنست بعناية ، أزهار النباتات التى التى قطفت حديثا، جرة اللبن الدافئة ملآنة إلى حافتها و ملفوفة فى قطعة من قماش ملون سميك .

كل صباح أرى جرة اللبن لكننى فى كل مرة كنت أشعر اننى أراها للمرة الاولى كما لو كانت معجزة أو

شيئا يطوى سرا داخلـه . كـل شـىء ينتظـر و أمـــى أول المنتظرين .. انـها خير تجسيد للانتظار ..صامتة متحفزة. ينبح كلب فى الفناء ، فتهرع أمى صوب النافذة .

يلـم بـى مثـل احساسـها فـأقتعد الاريكـة الـى جـوار النافذة واضعة قدمى تحتى ، أقضم فطيرتى و أنا انتظر . كلنا فى انتظار أبى ...

وفجـأة ينبــح كلبنـــا فرحـــا فأحشـــو فمـــى بالقطعـــة الاخيرة من فطيرتى ، و أركض خارجة . يأتى أبى حـاملا مجذافيـه علـى كتفيـه ، خطواتــه بطيئــة متثاقلــة بحذائــه الواسع الذى يخوض به الماء . علـى البعد يبـدو صغيرا وكذلك يبدو مجذافاه صغيرين كجناحى جرادة .

أجرى نحوه و كلما اقتربت منه بدا لى أكبر و أكبر و فــى النهايــة أراه عملاقــا .. تندفــع دموعــى وأنـــا أحتضـــن خاصرتـه .. يربـت علـى رأسـى بكفـه القويـة التـى تحمـل رائحة الطين .. يناولنى حقيبته الملأى بالسمك لأحملهـا . نمشى سويا صوب البيت .

تبقى أمى قرب البوابة .. تجلس على حجر محتضنة بذراعيها جرة اللبن .. تنظر إلينا .. ترقبنا و على شفتيها ابتسامة . أعلم تماما ما سوف يحدث بعد ذلك .. يسقط أبى مجذافيه بالقرب من سور الفناء .. تنهض أمى و يأخذ أبى مكانها على الحجر .. يخلع حذاءه المطاطى الضخم و أجرب أنا ارتداءه فى حين تصب أمى كوبا ثانيا ثم ثالثا حتى يبلغ العدد أربعة عندئذ يميل أبى بظهره إلى السور و يشرع فى التدخين . تناولنى أمى بعض اللبن فأشربه فى شراهة بينما أضع حذاء أبى فى قدمى و أرقب الفارق بين حذاء أبى و الكوب فأكتشف أن الحذاء أكبر من الكوب .

لم يتبادلا كلمة واحدة حتى الآن ! أبى ما زال يدخن و أنا –فى صمت – أشرب اللبن ورغم صمتنا بدا لى أننا نتبادل حوارا سعيدا جميلا .. عن البحيرة الكبيرة حيث اصطاد أبى سمكة من الكراكى كبيرة الحجم فلم يقو على سحبها الى قاربه .. عن الطائر ذى المنقار الأخضر

و الساقين الخضراوين نسمعه كل ليلة يندفع كالثور وسط المروج و يؤكد أبى أنه سيمسك به يوما ما من أجلى .

انتبهت فجأة .. كان ثمة صبى يجرى و فى يده عصا يخبط بها على السور بعدما تجاوزنى .. تلاشت الصورة و لفها الضباب و لكن بقيت الجرة وحدها .. عين الجرة التى كانت تقبع فوق المائدة فى مطبخنا كل صباح رمزا للاخلاص العميق و الانتظار أيضا .

أنظر فى ساعتى .. السابعة و النصف ! لم يأت .. حسن ، مؤكد أنه سيأتى غدا .. صنعت الريح حول قدمى افريزا صغيرا من الثلج .. خطوت فوقه و قدماى المتجمدتان تشعران أنهما لا تنتميان لى .

لابد أنه سيكون هنا فى الغد ، وكذا أنا .. سأكون صبورة.. تماما كما علمتنى أمى .

* * * * *

Works Consulted

Books :

Bigsby, C.W.E. A Critical Introduction to Twentieth Century American Drama. Vol.1 Cambridge: Cambridge U P , 1983.

Lehmann, John. The English Poets of the First World War. London: Thames and Hudson, 1984.

Newnham, Richard. Ed. Soviet Short Stories.Harmondsworth:Penguin, 1963.

Saroyan, William. The Daring Young Man on the Flying Trapeze and other Stories. New York: Bantam Books, 1961.

Speare, M. A. Ed. The Pocket Book of Short Stories. Montreal: Pocket Books, 1945.

Periodicals :

Balyonine, Emilia. " Waiting." The Soviet Magazine. Jan. 1968: 30-35

Morris, Zigmond. " The Little Cradle" The New Hungarian Quarterly. ix(32), 1968: 18-22.

Smirnenski, Hristo. "Tale of the Ladder." Obzor Autumn 1969 : 14-18.

فهرس: